ميلانين

رواية

فتحية دبش



دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد



اسم العمل : ميلانين

اسم المؤلف : فتحية دبش

الجنسية : تونس - فرنسا

التصنيف الأدبي : رواية

الترقيم الدولي : 6 – 27 - 6707 – 977 - 978

رقم الإيداع : 8759 / 2019

تدقيق لغوي : نجاح العالم السرطاوي

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : 00201211132879



الإهداءُ

إلى الذين يؤثثونني وينثرون البسمة حولي،

فأزهر حروفا تغنّيهم...

إليكم وأنتم تمنحونني أجنحة للتّحليق

بعيـــــــــــــــــــــدًا،

وإلى كلّ قارئ مهما كان وقع حرفي من نفسه..

فتحية دبـش

*****

قبلَ الانتهاءِ

ليون في ٢٠جانفي ٢٠١٩

نهارات وليال كنت فيها أغرق نفسي في تفاصيل هذا النّصّ الطّويل، كان يتمنّع ويراود، يذعن ويتمرّد في لعبة الغواية الأزليّة لكنّه لا يفارقني.

ما أصعب أن تكون مسكونًا بغواية الحرف، فتصنع عزلتك الاختياريّة وتصلب روحك على أعمدته، تتأرجح بين عوالمك الغاباتيّة، حيث تتشابك الهواجس و الرؤى و تتقاطع الكوابيس بالأحلام و تبدو المسارب ملتوية ممهورة بِعَثْعَثِ الأسئلة و طراوة الاحتمال. تطوف بها وتطوف بك، ثمّ تزهر الغواية و يتبيّن الطّريق، فيكون طفلًا من ورق!

ما أصعب أن أكون بينكم و لا أكون، أن أصنع عزلتي الاختياريّة و أغلق بابًا لأفتح آخر...

و رغم ذلك كنتم هنا بالقرب دومًا! كنتم لي خير رفيق...

مدينة أنا لكم بكلّ هذا!

فشكرًا بلا ضفاف لثلاثتكم:

زوجي وطفليّ.

هذه المساءلة ليست لي بوصفي تلك القادمة من الصّحاري أحمل اسمي ومنفاي، فهي ليست سيرة ذاتيّة ولكنّها سيرتنا جميعًا، هي سيرة كلّ الذين دحرجهم التّاريخ من ذات شموس إلى ذات ثلوج أو العكس، و للآخرين الذين تغويهم الإقامة فيعتقدون أنّ المتحوّلين في الهويّة وحدهم القادمون من هناك...

الكاتبة

****

تصديرٌ

"كم هم سعداء أولئك الذين يتخلّصون من الأغلال التي ترسخ بها حياتهم..."

ابن الرومي

......

" أنا أستطيع أن أختار دائمًا، وحتى إذا رفضت الاختيار فإن عدم الاختيار هو اختيار في حدّ ذاته...".

جان بول سارتر

****

أنيسة عزّوز

-1-

يتداولون الهمهمات، يستسلمون لنشوة عابرة بالنجاة يترجمونها بالتّصفيق والململة في أماكنهم...
نتوالى كالنّمل مغادرين. يزدحم بنا الممرّ الضّيق، نسعى جميعنا إلى رسم ابتسامة ودودة على وجوهنا، نودّع بها طقم الطّائرة ونلتقي من خلالها بأعوان الاستقبال في المطار.
البرد حارق خارج الطّائرة، وجسدي الصّحراوي لا يحتمل لسعاته. أشدّ رباط شالي، أقفل أزرار معطفي، وأتهيّأ لعبور الممرّ الذي يشبه النّفق القصديري الطّويل. نغادر الطّائرة إلى قاعة الاستقبال الشّاسعة. تتعدّد الطّوابير، تتواتر الإجراءات في هدوء. يتولّى عون الدّيوانة وقبله عون البوليس التّثبّت من أوراق هويّتي، لا تتحرّش بي عيناه طويلًا لكنّه يحدّق بصورتي، ثم يرفع رأسه نحوي، ويبتسم دون أن ينبس بغير: " تفضّلي مدام".
أستعيد جواز سفري، أعيد النّظر في صورتي الفوتوغرافيّة عساي أكتشف خيط شيب جديد أو تجاعيدَ جديدة أو ابتسامة لا تفارقني أو ملمحًا خفيًّا يستدلّ به الآخرون عليّ، لا شيء تغيّر.

تنتهي الإجراءات دون حادث يُذكر، تنفلت الأجساد والعيون نحو باب الخروج و كأنّها في سباق مع الوقت، يبحث البعض عن مستقبِل محتمل، وأبحث في ذاكرتي عن صور قديمة لباريس، للحظة الوصول، ولأثر هذا البرد المتسلّل إلى مساماتي.
يسكنني هاجس ضجِر وأنا أغادر مطار باريس-شارل ديغول. أقتلعني من حرارة تونس لأنغرس بعض وقت في برد فرنسا وشوارعها المصقولة بفعل المطر، قلق متعدّد كان يسكنني طوال الرّحلة وقبلها، يتضخّم في أثنائها ويتضاءل، هو قلق المسافات والانتظار، قلق الاستجوابات والأسئلة، قلق الخوف من المجهول والإقدام عليه، وقلق الوصول أخيرًا إلى محطّة لن تفضي إلّا إلى محطّة أخرى، لعلّه مكتوب في ذاكرة جيناتنا أنّ السّفر قدر نحمله فينا ويحملنا. أنظر إلى شاشة هاتفي الجوّال، وأحاول فكّ شفرته بأصابع مدسوسة في قفّاز جلدي. أفكّ الشّفرة بصعوبة، أضغط على زرّ تطبيق أوبر، أطلب سيّارة وفي خلال دقائق كانت بالانتظار. أنزلق داخل السّيّارة السّوداء، أُمْلي على السّائق الأنيق عنوان الشّقّة: بولفارد نويي عدد 6. تطوي السّيّارة بعض الأمتار قبل أن نغادر بوّابات المطار وتلتهمنا المسافة الفاصلة بينه وبين حيّ لاديفونس. أغتنم الصّمت القائم بيننا لأرسل بعض الرّسائل السّريعة إلى أحمد أطمئنه عليّ، ثمّ إلى رئيسي في العمل، ولورانس -

صديقتي- مراسلة صحفيّة تربطني بها غواية المهنة وصداقة تلقائيّة نشأت سريعًا ذات مهمّة لها بتونس، تبادلنا على إثرها أرقام هواتفنا وايمالاتنا وحساباتنا الفيسبوكية والتويتريّة والانستغراميّة، لنظلّ على اتّصال وتواصل يطول أحيانًا ويقصر أخرى..

يتقدّم المساء في خيلاء، واللّيل يرتدي حليّه الملوّن، أبدأ بالاستحمام بشلاّل الضّوء الباريسيّ، يتناهى إليّ ضجيج المدينة ويغزوني، أشعر بالبهجة نفسها والنّوستالوجيا التي صاحبتني عند أوّل سفرة بعيدًا عن شجر التّين والزّيتون.

كبيرة جدًّا باريس وأنا القادمة من قرية بعيدة بين بحر وصحراء، عندما غادرت مارث إلى تونس العاصمة للدّراسة في معهد الصّحافة وعلوم الإخبار كنت أشعر بالتّيه لفرط اتّساعها واكتظاظها هو الشّعور نفسه الذي تلبّسني وأنا أحطّ بطموحاتي في معهد الصحافة هنا قبل سنوات من اليوم. باريس الشّرسة أكبر بكثير والتّيه فيها بلا حدود، لغط و جلبة و عظَمَة و تنوّع لم أعهده، طرقاتها العريضة وأحزمتها المحيطة بها كثعبان تعدّدت رؤوسه وأذياله كالأخطبوط، وأنا القادمة من هناك! ما كان يخطر ببالي أنّه يمكن للمدن أن تتّسع هكذا إلى ما لا نهاية، و أنّها من فرط ثقلها لا تميد و لا تحدودب. أشفقت على نفسي في كلّ مرّة

تهت فيها بين خطوط شركات النقل الباريسي، أو بين شوارعها الممتدّة و أحيائها المختلفة، أشفقت أمّي على صغيرتها من السّفر والفراق و الوحدة و الحنين. وأشفق الآخرون من حولي عليّ من البطالة، فدراسة الصحافة نخبويّة جدًّا ولا تفتح مغاليقها لأمثالي.
لا شيء من كلّ ذلك أثناني عن مرادي و لم أتخلّ عن إصراري.
باع أبي شويهاته وأمّي حلِيّها القليل، وعزمت على العوم، إمّا النّجاة وإمّا الغرق.
تتداعى في ذهني صور فرنسا الوديعة ذات العيون الزّرق والشّعر الأشقر، تمامًا كما في البطاقات البريديّة أو مسلسل تلفازي من النّوع الاستعراضي. خبرتها لسنوات أربع كنت فيها أسير بين أبنائها بلا ظلّ ولا مرآة. وحده الحنين يجرّني إلى جولة بالمغرب الصّغير بارباس، لا-قوت-دور وسوق سان-جان. أملأ حواسّي بالأصوات وباللّغة وبالرّوائح. يبادرني أحيانًا بعض الباعة بلغة فرنسيّة بلكنة مغاربيّة، أجيبه بالعربيّة فيفغر فاه و تتّسع عيناه و يسألني بريبة:
" أنت متزوّجة من عربي؟"
: "لا"
يستميت في السّؤال: "عربيّة؟ لا؟"

هناك دائمًا حدث ما أو شخص ما أو عبارة ما يذكّرك الآخرون من خلالها بأنّك مختلف. لابدّ لك من تبعيّة ما حتّى يستأنسوا إليك إن استطاعوا. ألملم شظاياي، أستعيد اختلافي، و أختفي من هرج الأسئلة بين الدّفاتر... هناك فقط تكمن النّجاة...

على مشارف الحزام السّريع المفضي إلى الطّريق السّيّارة رقم **86** تظهر المخيّمات العشوائيّة متراصّة، بعضها فرديّ وبعضها جماعيّ. أسأل السّائق إن كانت مخيّمات الغجر، ولكنّه يجيب بنبرة حياديّة: " لا! هي تجمّعات للمتسلّلين الجدد".

يسكت، فأسكت بدوري، أنشغل بمتابعة الطّريق السّيّارة والصّور الهاربة، ولكنّها لا تفارقني.

بعد الرّبيع العربي بدأت إفريقيا تتقيّأ أطفالها بلا مواربة ولا خجل. تستفيد في ذلك من شمّاعة الفقر، ومن صمت التّاريخ على جرائمها في بيع أطفالها قديمًا للقوافل العربيّة ثم للبواخر الغربيّة واليوم على ظهور قوارب الموت. تتقيّؤهم دون استثناء فيتدحرجون من كلّ فجاجها، بعيدها وقريبها، هربًا من ذلّ الفقر والحاجة وبحثًا عن الحرّيّة والكرامة في شمال الخير والدّفء المأمول. تحوّلت القوافل والبواخر إلى قوارب مطّاطيّة يؤمّها من استطاع دفع ثمن العبور، وتحوّلت البضاعة السّوداء إلى بضاعة ملوّنة واستمرّت تملأ بطن المتوسّط الذي لا يشبع. توالى عبورهم بلا مواسم.

واختلطت القوارب الإفريقية بقوارب دول المشرق العربي وتكاثرت مخيّمات اللاّجئين في أوروبا على مشارف المدن الكبرى.

" فرنسا شقراء وستظلّ"!

كذا قال لي نيكولا -طالب في نفس دفعتي- ونحن نتقاسم وجبة غداء في المطعم الجامعي. قلت له:

" ولكن الشوارع تثبت أنّ سمرة صحراوية تجتاحها ببطء بعد الثورات العربيّة وموجة (الحرّاقة) "

وضع ملعقته وشوكته جانبًا واعتدل في جلسة قبالتي وقال:

"من الصّعب جدًّا أن تنجب أنثى بلا حبّ! ولكنّه يحدث كثيرًا أن تحمل جنينًا بلا حبّ أو بعد اغتصاب، وأن يتحوّل الجنين إلى طفل مشاغب يخلخل قلق البراءة، يفجّره بحثًا عن هويّة أخيرًا ستجعل منه طفلًا شرعيًّا، دون أن يكونه. ويحدث أيضًا أن يتحوّل جنين اللاّحبّ إلى طفل نزق منفلت يهدّدها و يقتصّ منها..."

استعاد جلسته الأولى وأمسك من جديد بسكّينه وشوكته وانبرى يقطّع شريحة اللّحم بشراهة وأضاف قبل أن أتكلّم:

" انظري ماذا فعل المهاجرون القدامى بفرنسا! عليك ربّما بالخروج في جولة إلى بارباس في يوم الجمعة!"

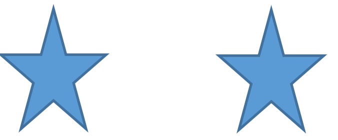
يضحك ثمّ يضيف:

"يسجدون في الشّوارع! يكتبون بالعربيّة على واجهات مغازاتهم!
لم يحدث أن خلخلت أقليّة مهاجرة فرنسا مثلما خلخلتها
الجاليات العربيّة المسلمة، إنّه زحف ممنهج، متمرّد، اندمج الجميع،
حتّى السّود! أمّا المسلمون فقد كشفوا عن عجزهم على التأقلم
فيها، ظلّوا متمسّكين بعاداتهم القبليّة وبأفكارهم الخرافيّة...
ساقهم إليها الفقر حتّى إذا شبعوا تنكّروا لبلد آمنهم من جوع".
نيكولا دُوران يردّد كثيرًا تاريخ جدّه الذي مات في حرب تحرير
فرنسا ويرى في نفسه وريثه الشّرعي في النّضال، يحلم بفرنسا
البيضاء، الكاثوليكية، ولا يتردّد مطلقًا في التّصريح بذلك سيّما
و قد تنامى المدّ القومي في جلّ بلدان أوروبا كردّ على سياسات
الهجرة التي تبنّتها الحكومات اليسارية سابقًا. عندما وقعت عيناه
عليّ بالمدرج قاده الفضول إلى محادثتي، سألني عن هويّتي، قلت:
" قادمة من جنوب المتوسّط وإليه عائدة."
خفّف ردّي عليه من عدوانيّة محتملة. حين سألته عما يزعجه
بالضّبط سكت برهة ثم أعاد القول:
" لا يمكن إدماجهم أبدًا وكلّ عرق يجب أن يحافظ على نقائه".
"ماذا يعني كلّ ذلك، العرق والإدماج؟"
لم يرتبك نيكولا من سؤالي ولكنّه اضطرّ للشّرح والتّعليل وهو
يؤكّد أنّه ليس عنصريًّا بل قوميًا ليس إلاّ...

ذلك الخيط الرّفيع الذي يرقص عليه الجميع هنا و هناك، في سباق الهويّة.
تقف السّيّارة، أنتبه إلى صوت السّائق وهو يملي عليّ المبلغ، أناوله إيّاه وأشكره جزيلًا على رصانته فقد بدت لي الرّحلة سريعة مريحة بشكل لم أعتده و أغادر.
كان بانتظاري رجلٌ طويل، حنطيّ البشرة، كثّ الشّعر، تشي قسماته بجذوره العربيّة. كان هو الآخر عجولًا مثلي. طاف بي الشّقّة المكوّنة من قاعة متوسّطة الحجم، عند مدخلها مرآة معلّقة على باب بيت الاستحمام، وحاملة معاطف من اللّوح الأبنوسي، يذهب البصر مباشرة إلى الشّرفة العريضة المقابلة للمدخل، على اليمين أريكة تتحوّل إلى سرير، وأخرى صغيرة لفرد واحد، و على اليسار ركن للطبخ يسمّيه الرّجل كيتشينات على الطّريقة الأمريكية، بينما تنتصف المسافة بطاولة صغيرة و كرسيّين اثنين، تطلّ الشّرفة على شارع واسع، و ساحة حمراء الأرضيّة، تصطفّ عمارات تجاريّة وإداريّة شاهقة ذات واجهات زجاجية تراوح ألوانها بين بياض و زرقة رماديّة.
شقّة صغيرة، حسنة الموقع والنّظافة، على بعد دقائق من الشانزيليزيه وقلب العاصمة. نُمْضي العقد، يسلّمني المفتاح ويتمنى لي إقامة طيّبة، ينصرف مشدّدًا على أنّني هنا في حيّ هادئ

وأنّه يمكنني الاتّصال به إذا ما احتجت إلى أيّ شيء. باريس الفسيفساء تختلف فيها المناطق فعلًا، وحي لاديفونس لم يخن ملمحه البورجوازي. مازالت واجهاته فرنسيّة العناوين وسكّانه باهتة ألوانهم.

حادثته بالعربيّة أستفسر عن قصده بالحيّ الهادئ، ولكنه اعتذر بلطف لعدم فهمه لسؤالي، أخبرني أنّه من الجيل الثّالث للهجرة، بحيث انقطع الخيط الرّابط بينه وبين اللّغة تقريبًا ، ولا يملك للتّواصل الضّروري غير بعض الكلمات التقليديّة. أعتذر منه بدوري، أودّعه، أغلقُ الباب خلفه وأغرقُ في صمت الشّقّة وأنام...

اليومُ الأوّلُ في باريسَ

أعود من نزهة قصيرة بعد يوم مضطرب تخلّلته بعض المكالمات الهاتفيّة والرّسائل الأليكترونية التي وجّهتها إلى أئمّة بعض الجوامع ورؤساء بعض الجمعيّات أعلمهم فيها بوصولي وأقوم بتثبيت المواعيد التي كنت قد نسّقتها قبل السّفر، إضافة إلى التّسوّق صباحًا لتوفير بعض المستلزمات الضّروريّة كالمناديل الورقيّة وقوارير المياه المعدنيّة والقهوة. أعددت لنفسي بعض الشّطائر وعلبة ياغورت وتفّاحة قولدان الحمراء الشهيّة، وجلست أخيرًا وبعد بعض إعياء، أستشعر بعض راحة تدبّ إلى مفاصلي، وأغرق في تفاصيل يومي القادم وضجيج أفكاري.

أتناول دفاتري الورقية التي لم تعصف بها التّكنولوجيا، بدأت بتدوين انطباعاتي كما هو دأبي كلّ يوم:

(السترات الصّفراء و سبت الغضب

الأحد 2ديسمبر 2018

ساعة أو أكثر بقليل خصّصتها لمصافحة الشانزيليزية، قوس النّصر، والأفق الممتد إلى ما لا نهاية. بقايا مظاهرات السّترات الصّفراء و حزن ممزوج بالغضب و الصّمت منسدل على الواجهات،

بعضها مايزال يحمل آثار الأمس و بعضها يحاول الصّمود ولكنّه أحدٌ منتكسٌ بعد سبت غضب هو الثالث منذ انطلاق الرّبيع الفرنسي أو حركة السّترات الصّفراء في شهر نوفمبر المنصرم.
لا تزال الشوارع تحمل علامات الغضب، أحجار كانت مرصوفة صارت متناثرة على مدّ الخطى، شعارات لم تطلها بعد ألسنة الماء فتلعقها و تمحوها: ماكرون ديميسيون، النصر للسّترات الصّفراء، الشّعب غاضب، كفى استنزافًا ...
لحاف من الرّماد و بقايا أبواب مهشّمة وواجهات مكسورة...
مشاهد تعيد إلى ذاكرتي تلك التي صاحبت انتفاضة الرّبيع العربي.
وتطرح بذهني أسئلة متشعّبة عن مستقبل الشّعوب و الأوطان في ظلّ هذا التّعجرف الرأسمالي الذي أجّج النّيران هنا و هناك و ضيّق الخناق على الجميع و أيقظ الانتماءات الضّيّقة و صار القتل باسم الدّين أو القوميّة أو العرق ممارسة يوميّة نكتفي حيالها بالوجوم والتّواطؤ.
أقلب الدّفتر و اصطدم ب (ملفّ رقيّة)، ملفّ أدوّن فيه تخطيط رواية كنت بدأت الإعداد لكتابتها منذ مدّة، أعيد النّظر في بعض تفاصيله.
يهتز جوّالي المهمل غير بعيد وتنبعث منه ترنيمة " أنت عمري"، ذلك الجرس تعزفه حواسّي كلّما خاطبني أحمد. يأتيني صوته من

بعيد ليدغدغ المسافة بيننا فيختزلها بعض الشّيء ويمنحني بعض الهدهدة:

" آلـــــو

آلو، أنيسة، هذا أنا، أحمد! "

أردّ ب:

"مرحبا أحمد!"

" أأنت مشغولة؟"

يباغتني سؤاله وكأنّ صوتي الخافت وشى بي.

كنت فعلًا مشغولة بترتيب أفكاري و (رُقيّة) علاوة على أنّني في هذه اللّحظة بالذّات من أواخر هذا اليوم الشّتوي المملوء بالغبش والضّباب، والحامل للمطر والسّحاب لا أريده أن يعكّر صفوي بخبر أنتظره وأخشاه منذ مدّة.

أذرع غرفة النّوم/الصّالون ذهابًا وإيّابًا، أتلعثم، أقول كلامًا لا أعنيه البتّة: " نعم، لا..." لم أكن أعني هذا ولا ذاك. ولكنّه لم يتوقّف عن الأسئلة التي لا أذكرها الآن و لم أتوقّف عن هزّ رأسي و إرسال «امممممم" بين الفينة و الأخرى.

أجلس والسّماعة على أذني، ألفّ ساقًا على ساق، يغوص كلّي في الأريكة البنّيّة، يغرق جسدي في يمّ هواجسه، تعبث أصابعي بريش الغطاء المنسدل عليها. صوته البعيد يتحوّل بين نشيج

وثورة، يطبق القلق على أنفاسي ويزيد من بياض الجدران حولي ومن خرس الأبواب المغلقة... يعلو صوته ويهبط، تغيب كلماته وتحضر، يزيد صوتي وهمهماتي من دفق كلامه و يتسرّب صوته في أذني كالحصى حتى لَيخيّل إليّ أنّه يحدث شقشقة ولا أمسك به.
أرفع صوت الجهاز قبل أن أضعه جانبًا، يقول كلامًا كثيرًا، أستجير منه بانشغالات لا تمتّ للّحظة بصلة، فأزيح فنجان القهوة بعد أن أتفحّص خطوطًا في قعره جفّت وتكلّست جراء إهمالي منذ الصّباح، أبحث بين خطوطه عن نبوءة ما، ثم بسرعة أضعه جانبًا، وأحاول أن أعود إلى ما كنت فيه، إذ لا تستقيم نبوءة للمليئين بالشّكّ أمثالي.
أجلس على حافة المكتب غير بعيد، يثرثر الهاتف بعدُ، تتدلّى ساقي كرقّاص السّاعة، أفكّر في التّخطيط لمقتل بطل الرّواية كما أعلنته في أحد منشوراتي الفيسبوكية. احتجّ يومها أحد القرّاء قائلًا:
" لا تقتلي أبطال رواياتك! "
سئم القارئ أخبار القتل و الدّماء، جاء يبحث في مواقع التّواصل عن قصص الغرام و الحبّ في منشوراتنا اليوميّة الشّبيهة بالثرثرة أو بالسّيرة، و عن أبطال لا ضحايا. أمّا أنا فلست أبحث في ملف رقيّة عن رواية عملاقة أصنع فيها أبطالًا لا نموذجيّين وبطولات خارقة، و لا عن قارئ يدسّ أنفه في شؤوني. أطمح إلى فكرة العدل

وإنصاف نفسي أوّلًا وانتزاع هويّتي من العالم ثمّ انصاف رقيّة المنكوبة، وأتخيّل أن موت البطل – زوجها – وحده ما سيجعل لحكايتها مغزى...
أسرفت في التّساؤل لِمَ لا يكون الرّب قد أسند القِوامة إلى الأنثى على الذّكور؟ لعلّهم يشقون بدل الإناث. ثم لا ألبث أن أستعيدني من كفري ومن نزقي، أحاول أن أقنع نفسي أنّ الشّقاء ثقافة، وأنّ القِوامة بقطع النّظر على نوع القوّام تورّث الاستبداد وتقترن به...
رقيّة التي تعترضنا جميعًا أينما حللنا، لا نراها، وأجزم أنها هي الأخرى لا ترى أحدًا ولا تهتمّ أبدًا لفضولي وشغفي بها، و لا تبحث عن جواب مجنون .
توغّلتْ فيّ منذ زيارتي الأولى إلى باريس، ولا أزال مهووسة بها وبخطواتها الثّقيلة في ليل المدينة الغريب، حين ركضها في رأسها بحثًا عن نفحة من هواء وذاكرة، مهووسة بتفاصيل تفاصيلها، ومسكونة بمحاولة تسريدها بمصداقيّة قد تبتعد كثيرًا عن المتعة.

فكّرت في جعله يموت بحادث سيّارة في أحد مساءات صعلكته بين الشّوارع والحانات، أو أن يختنق بحبّة الفياغرا التي يواظب على

شرابها فيغتصب رقيّة في اللّيلة الواحدة مرّات قبل أن يداهمه الموت البدائي، غير أنّ كل هذه الميتات بسيطة عاديّة لا تليق ببطلتي ولا بالحكاية.

ورغم أنّ الموت واحد كيفما كانت أسبابه، إلاّ أنّ احتمالات كثيرة راودتني. فكّرت في تدوينها إلى حين والعودة إليها لاحقًا. يؤرّقني سؤال يعبث باختياري وقارئ جعلتُه شريكي فتحوّل إلى غريم، يدغدغ غروري أحيانًا ويحاصرني أخرى. بلا كلل يتفاعل مع ما أنشره من مقاطع على صفحتي الفيسبوكية " نصوص أنيسة عزّوز"، يمدح البطل ويثني عليه ويتكرّم بفكرة أو اثنتين لميتة تحفظ للشّخوص البطولة ولي النّجابة، يسرّ إليّ أنّه سئم كلّ الأبطال النّجباء الأشبه بالآلهة، وأنّه توّاق إلى بطل يشبهه، بعضه شيطان وبعضه ملاك، بطل يولد ويموت مثلنا جميعًا. قال لي في تعليقه الطّويل " لقد تغيّر الزّمن و القارئ و الكاتب و حان للأبطال أيضًا أن يتغيّروا و للكتابة أيضًا أن تتجدّد."

كنت أعمد إلى نشر بعض مقاطع دون ترتيب ولا تخطيط مسبق، أفعل ذلك فقط ليراودني شعور بالتّوحّد والتّلاحم بالنّصّ والقارئ. لم تكن علاقتنا حميميّة ودافئة دائمًا، لم يكن فيها الحبّ دائمًا هو السّيّد، بل طالتها فترات من العزوف والإعراض، ونوبات من اللّوم والعتاب الحادّ، وعنف المشادّات التي كثيرًا ما ضجّت بها

كلماتنا. يتسلّل إلى نصّي، يتعثّر بي وأتعثّر به، يتحوّل الأمر إلى صراع يضعني أمام معضلة الكتابة بين مطرقة وسندان، مطرقة الرّقميّة و حينيّتها وسندان ثقافة الرّقيب والممنوعات المتعدّدة التي تتحكّم في القول و طرائقه و لم يفلح بعض القرّاء في تجاوزها.

كثيرًا ما عبث بنصّي، أناوره بدوري، أحمي حدوده و أستميت في الدّفاع، بخيلاء يذكّرني ب(موت المؤلف)، و أحاول إقناعه بأنّ الرّقميّة بعثت المؤلّف. يدافع كلّ منّا عن حقّه في توجيه دفّة الأحداث إلى حيث يريد، يريد القارئ حلمًا خفيفًا مزهرة نهاياته وأريد كتابة واقع يؤرّقني. أستدرجه إلى عوالمي، ويستدعيني إلى التّحليق فوق مشاغله الصّغيرة والكبيرة، بتّ أخشى أن أخون انتظاراته كما أخشى أن أخون رقيّة، و أن أخونني. أشفق عليه ويشفق عليّ، يقسو مرة وأقسو أخرى، وتمضي بنا الحكايات من حبّ إلى عزوف فحبّ، ولكنّه كان من العسير جدًّا أن يقنع أحدنا الآخر بأنّ للنّصّ كاتبًا واحدًا.

كما كنت أفكّر في قتل بطل (رقيّة) فكّرت في قتل القارئ أيضًا، لأحتفظ بمساحة من الحرّيّة التي لا يستقيم أمر الكتابة دونها.

أتساءل تراهم كانوا مثلنا قبل الكتابة الرّقميّة، يخشون قارئًا محتملًا، يشاركونه هواجسهم فتتقلّص مساحات قولهم أحيانًا؟

تراهم كانوا أكثر حرّيّة منّا أم هو مجرّد اختلاف في طبيعة الجلاّد و القيد.
لا أنكر أنّ متعة فريدة تجتاحني حين لقائي بالنّصّ وقارئي.
يشحنني التّفاعل بطاقة توتّر عالية تشبه رعشة عشّاق في ليلة مقمرة على رمال شاطئ مهجور لم يدنّسه خطوٌ قبلنا، فأستمرّ بالكتابة و أستمرّ، و كلّما ثمل بالكلام استيقظت نرجسيّتي، و كلّما ثملت ازددتُ شراسة و تمكّن هو منّي. حالة من السّكر لم تسعفني في تخطّي عتبات الخوف المتربّص بي و القلق المتأتّي من جنون التّوق إلى الكمال، فإذا الكتابة تتمثّل إليّ نوعًا من الجنون الذي لا دواء له غير تآكل الذّات و تشظّيها، ثم لملمتها من جديد، أو نوعًا من الانتصار الذي تحقّقه الحياة على الموت و ثورة على ذلك المسار الأحمق الذي يعدنا بنهاية الرّحلة قبل أن تبدأ. أدركت أنّ الكتابة لا تلين أبدًا للعقلاء، فهي تحتاج ملح الجنون وسكّر الدّهشة ودقّة الهدّاف واتّساع الفكرة، وقرّرت أخيرًا قتل قارئي واستفرادي بالكتابة قبل أن يبعث من مرقده و يقتلني.
" آلـــــــــــــو...
آلو! أنيسة لِمَ لا تجيبين؟ "

يقبل الصّوت إليّ مزمجرًا، مخنوقًا في السّمّاعة، معبّرًا عن امتعاض لا تحجبه المسافة. يخرجني من تهويماتي ليعيدني إلى المكالمة الهاتفيّة التي كنتُ نسيتها تقريبًا في أثناء تسكّعي بين أفكار الرّواية...

عدت لألتقط السّمّاعة.

كنت أريد أن أعلمه أنّني مشغولة بموت آخر وحياة أخرى، وأنّه لا طاقة لي على استيعاب ما يريد إخباري به، وأنّه ليس عليّ أن أردّ دائمًا ما ينتظره منّي. للواحد منّا عوالم قد لا تتّسع للآخرين على قربهم، ثم إنّ الكتابة أنانيّة لا تحتمل الشّريك.

أجبته: "نعم حبيبي؟"

لكنّه كان قد أغلق الخطّ ككلّ المرّات التي لم أكن فيها - حبيبته-.




جاءت رقيّة إلى باريس وهي بنت السّادسة، كان ذلك في أواخر الثّمانينات حين أُجبِر والدها على خلع ترابه والالتحاق بالحضائر يدًا عاملة رخيصة كغيره من هؤلاء الذين جيء بهم لإعادة تهيئة فرنسا كما جيء بالذين من قبلهم للحرب أو إعادة الإعمار بعد الحرب. لم يكن له من غرض سوى توفير حياة أفضل لعائلته الصّغيرة وثمن عمرة أو حجّ لوالدته التي تركها خلفه بريف القيروان. (أمّي بختة) كما يناديها الجميع ظلت لزمن طويل بعد سفره تشدّ الحزام حول خصرها النّحيف، وتتسلّق شجرة الصّبّار بعزيمة لا تلين، يغرقها الخذلان الكاتم على أنفاس القرية، وتغرق مثلما تغرق بقيّة البلاد في أزمة الخبز والأدوية والكرامة.
كان عليه أن يختار بين استمراره برتق آخر كلّ يوم أو بقبول عرض عماد الهمّامي الذي فتحت له الهجرة إلى فرنسا أبواب الرّزق.
لم تعد أمّه تستطيع معايشة انكساره، ولا قريته المنسيّة في عمق القيروان تتّسع لجوعه، ولم يعد ليلها كافيًا لينطرح على عراء أبنائها فيسترهم. المدن في الأوطان الجائعة كالنّساء تمامًا، مستباحة أو أسيرة تفرّخ الفقر والتّهميش.
كان المنصف يتعهّد حلم أبويه، يحلمان بالتحاق واحد من أبنائهما بسلك التّعليم العمومي والخروج بثمرة جهد لم يدّخره أيّ من الأسرة في سبيل أن يتحقّق الحلم. في المدن المنسيّة والقرى المبعثرة

والأرياف المحروقة صيفًا والغارقة في الفقر طوال أيّام السّنة ليس التّحصيل والوظيفة مسألة اختيارات ذاتيّة، وإنّما هي مسألة خلاص جماعيّ. ليس للآباء ما يراهنون عليه سوى الأبناء النّجباء، هم رأس المال الأسريّ الوحيد. لذلك ولاعتبارات كثيرة لم يكن أمامه من خيار سوى القبول بقدره ساخطًا في سرّه على الفشل الذي لازمه، لم يتحصّل على شهادة الباكالوريا، أعاد الكرّة مرّة ومرّتين قبل أن يؤبّن حلمه بالدّخول إلى إحدى الجامعات. ولكنّه تزوّج على فقره وبدأ في تفقيس بيض عشّه واحدة تلو الأخرى إلى أن كبُر العشّ وعزّ الخبز في البيوت المتوسطة والمعدمة.

كان حاسمًا ذلك اليوم الشّتوي البارد من شهر جانفي، عقب مناقشة ميزانيّة الدّولة للسّنة المقبلة قرّر محمد مزالي، الوزير الأوّل لحقبة من حكم الحبيب بورقيبة، إلغاء الدّعم على الحبوب ومشتقّاتها والتّرفيع في ثمن الخبز وسميد القمح الصّلب. لا بدّ من تجويع الجياع لتغطية عجز الميزانيّة الآيلة للإفلاس، كذا يقول تاريخ الثّورات دائمًا. لكنّ تلك مسألة أخرى يمكن البحث فيها بالعودة إلى كتب التاريخ مع ضرورة الحذر والحيطة.

يستعيد المنصف القايد ذاته الضّائعة في خضمّ المعركة والجري اليوميّ وراء حلم الحياة الكريمة، كانت الانتفاضة الشّعبيّة بمثابة رئة تمنحه بعض الهواء، سنوات من الجوع والقهر دفعته للنزول

إلى الشارع. انطلق هاتفًا بالعدالة والخبز، كغيره لم يكن يحرّكه ذلك وحسب. لكلّ متظاهر أسباب أخرى صغيرة أو كبيرة لكنّها ذاتيّة جدًّا تجعله يستهين بالموت حين الاختيار بين ميتتين.
عبثًا كان بطن زوجته المتكوّر يذكّرهما بأن الحبّ خبز الفقراء.
وعبثًا كان يحاول إقناع نفسه بكلام الكبار بأن الرّزق بيد اللّٰه وحده...
وكالنّساء جميعهنّ وسوست إليه بصوت خافت:
" يا عشيري، عليك بقبول عرض عماد الهمّامي قبل فوات الأوان!
التحق به بباريس! دعنا نحيا كما النّاس!"
وهكذا يستقرّ المنصف القايد في حيّ بَالْفِيل الذي تعمّره شريحة من المهاجرين اليهود التونسيّين والجزائريّين قبل وصول مسلمي المغرب الكبير.
أتفحّص مسودّة التّخطيط من جديد ، أعيد تطعيم عملية البحث ونحت ملامح الشّخوص وتدقيق خيوط الحكاية، تحاصرني من جديد كلّ تلك الأسئلة:
هل تحتاج رقيّة أن يكتبها شخص ما، فيهديها حياة كتلك التي تحياها وربّما أكثر بشاعة؟ أم أنّها تحتاج أن تمارس طقوسها دون ضجيج ودون أضواء؟ ولست أدري إن كنت حرّة في فعل الخلق الذي لن يتمّ في سبعة أيّام وليال.

أصبحت، أنا المسكونة بالتمرّد على هذه القوالب، منشغلة بفكرة الكمال في الخلق، صرت كمثل كوّة يطلّ منها الشّخوص على العالم، وينفعل معها القارئ ويلزمني كلّ منهما بتهذيب هذا وذاك وتهذيبي، نتوهّم كثيرًا عندما نفكّر بأنّ الرّوائيّ هو صانع الرّواية، إنّها في الحقيقة تصنعه، تعرّيه و تتتحدّاه، تكشف قوّته و ضعفه، ولا سبيل يختاره غير المضيّ في النّحت والتّقشير...

أترك الأوراق وأتنقّل بين الباب والنّافذة غير مرّة، أستند إلى الحائط، الأضواء تراقص حبيبات المطر وتعاند زخّه، الطّريق التي تمتدّ كثعبان تحت نافذتي، فارغة إلاّ من بعض المارّة يسرعون الخطى طلبًا للاحتماء من الماء. أنظر بعيدًا إلى المدينة الممتدّة أمامي كعروس يثقلها الحليّ، هذه باريس! جنيّة تسكن من وطأ شوارعها، فتتلبس بروحه ولا بدّ أنّه عائد يومًا إليها.

(إنّهم مثلنا) كتب الطّيّب صالح ذلك في موسم الهجرة إلى الشّمال. ولكنّني أعتقد العكس تمامًا... إننا مختلفون جدًّا. كلّ شيء هنا مرتّب، كلّ شيء مدروس لرفاهيّة الإنسان، حتّى المهمّشون مرتّبون على الأرصفة، قبالة البنوك والمغازات الكبرى. أيّ حياة بوهيميّة يختارها البعض في شوارعهم ويُدفع إليها المعدمون في بلداننا.

هؤلاء النّاس لا ينامون إلاّ بحساب، لا يوقفهم برد ولا مطر ولا ثلوج، يرون في العمل قيمة مضافة ونرى فيه تبعيّة ورقًّا. ترهقهم

الشّموس قليلًا فيضعون الخطط تلو الخطط لتلطيف وهجها، يتفقّدون شيوخهم ورُضّعهم ويستمرّون في الهرولة. ترهقهم الثّلوج فيعمدون إلى خطط أخرى، هكذا يلاعبون الفصول ببهلوانيّة مدروسة، كلّ شيء فيها بحسبان.

نحن ننام بلا حدّ، يعطّل المطر مصالحنا، وتجرف سيوله طرقاتنا، وحين الشّموس نرقص كالدّراويش احتفالًا بعرس هذا أو ختان ذاك، وأحيانًا بين عرس وعرس نقف قليلًا من الوقت لنبكي شيخًا أسرج فرسه لدبكة أخيرة... نعتبر الحياة والموت عرَضًا من أعراض الوجود أو صدفة من الصّدف العجيبة، تشغلنا فترة ثم نمضي، نتحمّل أوزارنا بقدريّة عجائبيّة لا يستطيع غيرنا إليها سبيلًا. تتهاوى يومًا عن يوم كلّ تلك الاعتبارات التي حفظناها صغارًا وأقنعتنا أنّنا فوق الجميع وأنّ هذا الغرب الكافر مفكّك الأوصال على عكسنا.

من خلف النّوافذ أراهم يحثّون الخطى واللّيل يبسط أجنحته على يومهم المنصرم، فيستعدّون لليوم المقبل بذات الحزم والصّرامة.

كأنّ عجلة الزّمن تنضاف إليها آلاف الدّورات عندهم، لا يتوقّفون ولا يتذمّرون، يبتسمون، ويقرّرون الهدنة بين حين وآخر فيتحلّقون في نهاية أسبوع من الهرولة حول كأس كما يقولون.

سألت لورانس:" لمَ الكأس بالذّات؟"

ضحكت وهي ترنو إليّ بعينيها الزّرقاوين، ثم قالت:

" نقول لنشرب كأسًا!

هكذا نقرع الكؤوس بالكؤوس فنقتل بالصّوت الصّمت".

قالت ذلك، وأضافت أنّه ليس بالضّرورة أن يكون كأس خمر. ولكنّه كأس الحياة تحسّبًا للموت. لا ينتظرونه مثلنا بقدريّة، بل يتهيؤون له بالإقبال على الحياة حدّ السُّكْر. لا يتركون للصّدفة شيئًا في ترتيبه خلا موعده الذي تحكمه قدرة أخرى. يسرفون في الاحتفال بالحياة ويشربون على أنخابها كؤوسًا. لست أعلم السّرّ في ذلك، لعلّها الهيبة التي تكتنف النّهايات، حتّى أنّهم يودّعون موتاهم ب(السموكينغ) وبالكأس، كأنّ الموت عندهم صنو للخلاص أو محطة وصول أخيرة، بينما نودّعهم باللّطم والعويل، تحسّبًا لعذاب القبر الذي لا يخلو منه حديث الجوامع والمدارس والبيوت، أو لعلّه ذلك الإيمان بأن الحياة تستحقّ الاحتفاء لا كما نراها أكذوبة فنستهجنها ونلهث وراء الآخرة لهاث الخطّائين فنخسر متعة الدّنيا وجنّة الآخرة...

ينعكس على النّافذة شعاع جميل، ترتسم حبال نورانيّة تتأرجح على حوافّها قطرات المطر كلؤلؤ. ألوان تضفي على الجوّ طقوسًا من الجلال والعظمة، وكأنّ الكون في لحظة خشوع وعبادة. يملؤني

شعور بأنّ كلّ شيء هنا سريع ومنتظم سرعة منتظمة كدقّ القلب بلا ضجيج.

تطوّحني خواطري بعيدًا، ترسو بي الاحتمالات هنا وهناك، لم يعد أحمد للاتّصال بي، ولا يمكنني أن أهاتفه الآن. يحتاج في عمله إلى حضور ذهن وقلب خالٍ من شوائب القلق، " حياة المرضى أمانة برقبتي يا أنيسة!" تلك كانت كلماته كلّما غلبني الأرق واتّصلت به. صارت عادة من عاداتي المتكرّرة أن أطلّ من نافذتي تلك على حمرة السّاحة والشّوارع المضيئة دون أن تطول وقفتي. فالمساء عاديّ جدًّا خلف النّوافذ الغريبة، وأمطاره الشّتويّة لا تشجّع أمثالي على التّسكّع. لم يكن هناك من خيار سوى الدّوران داخل الجدران. انبريت أمارس النّزف، وأشكّل التّهويمات كلمات أمتلك زمامها تارة وتمتلك زمامي طورًا، فتنفلت منّي و أنفلت منها في لعبة شبقيّة لذيذة كلما طالت توهّجت، و عدت أقتفي أثر رقيّة...

اليومُ الثالثُ في باريسَ

تسكّعت كثيرًا على ضفاف نهر السّان في أواخر اليوم، بعد أن أجريت بعض التّحقيقات خلال لقائي ببعض الجمعيات، بعض التّفاصيل أثقلت ذاكرتي: البطالة، العنصريّة، تحقيقات الهويّة التي يتعرّض لها ....العرب و الأفارقة يوميًّا.

الأدلجة المتطرّفة التي ذهب ضحيتها شباب انزلق إلى السّجون في مستهلّ حياته العمليّة في غفلة من الأسر و السّلطات المعنيّة و تحوّل الكثيرون منهم إلى قنابل موقوتة لا أحد قادر على التّحكّم بها.

عند مدخل الجمعيّة القرآنية التقيت بالإمام:

" نحن سيّدتي نحاول تقويم ما اعوجّ من صنيع المجتمع!" قال ذلك بتجرّد و صوت يحمل نبرة أسف و تساؤل و إصرار في نفس الوقت.

قلت: " كيف ذلك؟"

" هنا دار السّلام، دارنا جميعًا، المسجد يا سيّدتي ليس فقط مكانًا للصّلاة، هو وطن من لا وطن له، و نحن سيّدتي لا نبحث عن وطن

في غير رحاب اللّه." يرفع سبّابته إلى السّماء و يستمرّ في تفاصيل كثيرًا ما سمعتها هنا أو هناك...

" ما الذي يمنع هؤلاء من إيجاد مكان لهم بين الأمكنة؟"

سألته دون أن أشكّ لوهلة واحدة في إجابته السّريعة. " إنّ اللّه اصطفانا على العالمين، سيّدتي! و كلّ أرض اللّه وطن، هل بعد ذلك نحتاج أن نجد لنا مكانًا؟

من ير أبناءنا ضحايا المخدّرات، و البطالة، و التّهميش سيفهم لا شكّ لماذا لا يقوّم غير اللّه اعوجاجًا ساهم في تشكيله الجميع! هنا يجدون السّكينة!"

بدا لي بعد ذلك أن موضوعًا كموضوع الهويّة و الهجرة أصبح بمثابة موضوع لاغٍ، تجاوزته الأحداث. و هو ما صادق عليه الإمام بقوله: "نحن سيّدتي ولدنا هنا، كبرنا هنا، لا نعرف لنا ترابًا آخر و لكنّنا نريد العيش كبيار بول و جاك... دون تعقيد و لا قوانين تمنع نساءنا من حجابهنّ أو تمنعنا من إقامة شعائرنا... الهويّة لم تعد معلّقة بين الإقامة و الهجرة، بل صارت مسألة مقاومة! مقاومة العنصريّة والإسلاموفوبيا و التّضييق..."

غادرت المكان مسكونة بأسئلة أخرى....

زرت واحدًا من أجنحة متحف اللوفر،أتوه بين ماضٍ و حاضر. للمكان جبروت و سطوة و للذاكرة ثقل و ثغرات. وحدها الصّور

التي يلتقطها السّيّاح توقف مدّ الزّمن .أغادره مع المغادرين، أنزل إلى نفق المحطّة، أنتحي مقعدًا بانتظار رقيّة، مكثت ساعة أو بعض ساعة أبحلق في عربات الميترو، أتسلّى بقراءة ملامح المرتادين: مستعجلة بعد يوم شاقّ أو متأنّية بعد فسحة سياحيّة. باريس السّفلى ليست باريس العليا. تبدو أكثر حميمية وأكثر عدوانيّة في نفس الوقت، تبدو فريسة و مفترِسة. الوجوه مغلقة، بالكاد تفصح عن حياة، والأجساد تسعى في نفق الميترو بين منحشِر في العربات وباحث عن مخرج للسّطح.

تتسحّب رقيّة من بين المسافرين، تركب الخطّ رقم واحد، الرّابط بين محطّة اللّوفر حيث تشتغل عون صيانة موسميّ إلى جانب عملها كمعينة منزليّة، ومحطّة الشانزيليزيه كليمونسو، ومنه الخطّ رقم 13 الموصول بمحطّة لا بازيليك دو سان دونيس حيث تقطن منذ زواجها. السّاعة تقارب الحادية عشرة من ليل باريس الذي لا ينام. تدوّر عينيها بين الحين والحين في ردهات الفضاء المعتّم المغلق، تقابلانها لامعتين منعكستين على زجاج النّوافذ. تتوالى الصّور سريعة على الزّجاج السّميك، المشاهد هاربة بين محطّة وأخرى، يتلوّى الميترو كثعبان يشقّ بطن الأرض ويلتحف سواد النّفق فتفيض الأرواح على محطّاته المتقاربة.

أنفاق تأوي مدينة تحت المدينة، كلّما ارتدت واحدًا منها انقبض صدري، أفكّر في آلاف الأيدي التي اقتلعت من المستعمرات لتشييد السّكك و الأنفاق استعدادا للمعرض الكوني في بداية القرن العشرين، أفكّر في آلاف الأجساد التي قضت و الأرواح التي تركت فيه ضحكات قليلة و أوجاعًا كثيرة طوتها السكك ثم تعهّده المهاجرون بالصّيانة.. منهم من قضى في حوادث شغل ومنهم من خرج محنيّ الظّهر وعاد إلى أقاصيه ومنهم من مات في غرفة بمبيت السوناكوترا وحيدًا، وقلة قليلة شاخت على مقاعد البارات تملأ كؤوسها بالشّجن وتفرغّها، قلة قليلة جدًّا تنعم بدفء العائلة والأبناء صغارًا و كبارًا. لكنّ عجلة الزّمن بدوّاستها الثّقيلة تعود بأبنائهم، يتعهّدون ما حفر آباؤهم بالحراسة والتّنظيف فيما يتعهّدها الغجر بالموسيقى والنّشل. غريب هو قدر الغرباء، وغريبة غربتهم مثلهم... تلتهمهم وتجترّهم على مدى السّنوات بلا كلل.

تعرف رقيّة جيّدًا وجوه مرتادي الميترو، تكاد تعرف قصص كلّ الذين يمرّون وفي حلوقهم تكدّست الأصوات واختنقت الحكايات بأسرارها المدفونة، يعرفها مراقبو شركة النّقل وفنّيّو النّظافة، دأبوا على تحيّتها والتّحدّث إليها قليلا حين تصادفهم أثناء دوريّتهم،

ذلك أنّه هناك ألفة عجيبة بين الغرباء يستدلّ بها بعضهم على بعض.

تتسلّل بقامتها النّحيفة إلى داخل العربة، تنتحي مقعدًا وتجول عيناها في المكان، بعض الكراسي الفارغة، يفضّل البعض الوقوف، والبعض الآخر يغرس بصره في شاشات الهواتف الذّكيّة أو في ورق كتاب جيب يعتبره الأوروبيون متاعًا من متاع المسافات طويلها وقصيرها. يقرؤون كثيرًا... ودائمًا! يعبرون من مكان إلى مكان دون احتفال بالصّور الآفلة.

تنتحي رقيّة مكانًا وتداعب هاتفها، تنقر شيئًا على الشّاشة و هي مغرقة في التّفكير.

ينشغلون بالقراءة وأنشغل بالتقاط ما يمكن التقاطه من حركات رقيّة وسكناتها، وأعيد تقشير شخصيّتها الرّوائيّة ونحتها من جديد.

تجلس بركن لصيق إلى النّافذة، تنظر إلى العربات التي تتخفّف من حملها على الرّصيف الموازي، يكثر المغادرون ويقلّ الرّاكبون. يبدو على ملامحها القلق والتّعب والانشغال، ترفع بصرها بين الفينة و الأخرى، يشدّ رجلان وامرأتان انتباهها، كان جميعهم في رشاقة وقيافة تروق لعينيها، كثير من الشّبق واللّهفة تضيء ملامحهم...

ينحني أحدهما على جارته ذات الأصول الأفريقية ويطوّق خصرها، يقرّبها منه ويتمتم في أذنيها كلمات يبدو من محيّاها الذي انقشع فجأة، أنه كلام مفرح، فقد ارتخت قليلًا نحوه باسمة. تحدّق رقيّة بهما وتحاول قدر الإمكان أن تقرأ على شفاههما شيئًا يستحقّ المتابعة ولكنّها سرعان ما تستدير نحو سيّدة أخرى وتتبادلان التّحيّة كغريبتين تلوذان بابتسامة باهتة تنشر بعض الدّفء على صقيع قلبيهما.

تستعدّ رقيّة للنّزول في المحطّة المقبلة، أستعدّ مثلها. تلك المدينة التي حفظت أزقّتها زقاقًا زقاقًا وألِفت روائحها وصخبها العنيف وخبرت عيون قططها التي تموء من وراء النّوافذ وحتّى عجلات السّيّارات الديكابوتابل التي تحرق الإسفلت كلّما مرّت مسرعة... تغادر الميترو، مثلي تعيد لفّ معطفها الثّقيل على جسمها المنهك وتحكم غلق أزراره واحدًا واحدًا، تعيد ربط شالها القطني حول رقبتها، تحتمي تحته من لفح البرد الأخرس لجسمها المترنّح تعبًا. تحاول صعود السّلم والخلاص من فراغ النّفق وطوله. تمرّ مسرعة من أمام وجهين أو ثلاثة ممن لا سكن لهم غير الأرصفة أو دفء المحطّات فيستقرّون في بعض مناحيها، أصبحوا من معالم المكان، مجرّد ديكور يبرع السّيّاح في التقاط صور له.

تخونها قواها، يتثاقل خطوها، ويبدو المصعد البلّوري منقذها الوحيد، ينطلق نحو السطح بسرعة فائقة، تتابع حباله من خلف الزّجاج وتنأى بعقلها عن كلّ تفكير. (تخرخط) جسمها خارجه بخطى بطيئة، تعبر الطّريق العريضة دون التفاتة لليمين ولا لليسار، كأنّها تستعجل الوصول والخلاص.
كان اللّيل ثقيلًا ثقل خطواتها وكنت أتتبّعها كظلّها وهي لا تراني، وأغبطها على هدوئها، بينا ينتابني شعور بعدم الأمان تحسّبًا لجريمة قد تقع في هذه المدينة و شبيهاتها دون سابق إنذار.
" سان سان دونيس، محافظَة لا تهمد ولا تلين، بين سياستها اليساريّة وواقعها الفقير، أصبحت وطنًا جديدًا داخل الوطن للفرنسيّين من أصول مهاجرة، عيّنة دقيقة لكل عمل في إطار مبحث الهويّة. " هكذا استهلّ مديري جلسة العمل الأسبوعيّة قبل أن يكلّفني بإعداد الملفّ..
حين عدت مساء إلى بيتي الافتراضي (نصوص أنيسة عزّوز)، هممت بكتابة منشور طويل حول الهوية، لكنّني عدلت على ذلك و اكتفيت بسطور قليلة : " الذين يدافعون عن هويّة ثابتة يسيرون عكس الحتميّة، فالهويّة متحرّكة متحوّلة، شأنها شأن كلّ ما يتأثّر بعوامل بعضها من الدّاخل وبعضها من الخارج. ومن الظّلم أن تتجاهل الصّحافة موضوعًا كهذا وتكتفي بإثارته في

الأزمات، غالبًا ما حوكمت هذه الأجيال هنا وهناك وقوبلت بالتّهميش. "
تواترت التعليقات، و اكتفيت منها برأيين اثنين.
" الهويّة ليست فقط ما ورثناه وهو الثّابت ولكنّها أيضًا ما اكتسبناه وهو المتحوّل ".
" الهويّة لا تتحوّل، هي ما توارثناه و حفظناه، هي ديننا و لغتنا و أرضنا... و كلّ منغرس في هويّة جديدة لا يعدو أن يكون منبتًّا انبتات البعير المعبّد!".
عندما كلّفني رئيس التّحرير بالملفّ سرَت رعشة في مفاصلي وتوهّجت. فأنا حديثة عهد بالجريدة، أحفر خطاي في جسد من صوّان لا يلين، تتراكم في أدراج مكتبي ملفات طلبات التّعيين بجرائد كبيرة وبمؤسّسة الإذاعة والتّلفزة و تتراكم أيضًا ردود بعض المؤسسات تكاد تتّفق على:
" نعتذر عن قبول طلبك التّعيين لعدم وجود شغورات في الوظيفة!"
جواب حفظته عن ظهر خيبة، تبيّن لي أنّ السّبب يعود إلى مخالفتي الشّروط في بعض تفاصيلها، لا شيء يقنعني وعاجزة على إقناع الآخرين.
بحذر تشوبه الدّهشة تلقّيت مكالمة من مدير جريدة "الوطن اليوم"، صدفة كان قد وقع على إحدى تسجيلاتي باليوتوب، فيه كنت

أحاول تسليط الضّوء على بعض الظّواهر الاجتماعيّة. حين عرض عليّ تعاونًا موسميًّا صرت بعده موظّفة بالجريدة، لم يكن يخطر ببالي مطلقًا أنّ صفحة نضال جديد ستُفتح.

نظر الأستاذ حامد إلى بقية الزّملاء وأعلن:

" سيكون من مهامّك يا أنيسة أن تنجزي هذا التّحقيق!"

يحملق به الأستاذ أنور والأستاذة سلمى الجالسة بقربي، ظلّ الكلام مشنوقًا على شفة كلّ منهما، برهة واحدة ثم غرقت القاعة الفسيحة في صمت مريب، تتدلّى السّتائر ككفن على النّوافذ، و تسود حالة خشوع تذكّر بالموت... تتحوّل الطّاولة المستديرة إلى طبق متحرك، يغرق كلّ واحد منّا في دوّامته، غير أن الأستاذة هند فصلت التردّد وقالت:

" لكنّها حديثة بالجريدة. وهذا عمل ضخم لا يمكن إنجازه بشكل تقريبيّ، ربما كان من الأسلم تكليف أحد القدامى به".

تخفّض رأسها الملفوف بشال أبيض ربطته ربطة لا تخلو من جمال وزيّنته ببروش مذهّب، تتشاغل بتدوير قلم رصاص تتشاغل به بين أناملها، أنيقة، مقلّمة الأظافر، تزيّن الأساور الرّقيقة من الذّهب الأصفر معصميها و يضوع من فمها رائحة تشبه القيء.

خيّم بعض الهدوء ثم حدثت همهمات وسرت في المكان بعض الغمزات، و قال الصّمت كلامًا كثيرًا.

لم أتحرّك من مكاني، أجلس كعادتي على طرف من المقعد، وضعت مرفقيّ على الطّاولة، شرعت أرسم دوائرَ وخطوطًا كدائما واكتفيت ككلّ مرّة بمراقبة الحركات و السّكنات.
ينشغل السيّد المدير ثانية بترتيب أوراقه، كعادته يجذب نفسًا جديدًا من سيجاره الكوبي المعطّر حيث لم يكن غيره يهتمّ بالتّدخين في أثناء جلسة العمل الأسبوعيّة. بدا لي من تحت خيوط الدّخان رقيق القسمات، غارقًا في دخان سيجاره وأفكاره، يرافع في قضيّتي، يقف مزهوًّا بطفلة قادمة من عمق الجنوب لتندسّ وسط بقايا البرجوازية بخيلاء لا مبالية. انتظرت بين يقظة وحلم أن تنتهي جلسة العمل.
سوف أنجز الملفّ.

" علينا أن نناضل من أجل الوصول إلى الصّفر!"
" لن أرضخ، ولن يكون عليّ وعلى أمثالي أن نبذل الجهد جهدين لإثبات جدارة ما..."
توفّي إبراهيم، صديق طفولتي، أيّامًا قليلة بعد أن تخرّج أستاذًا ألحقوه بقرية نائية في واحات قبلّي، لم يبق منه سوى صدى كلماتنا تلك، لم ير شيئًا من عنادي ولم يغادرني طيفه كلّما طرقت بابًا لم يُفتح أمام أمثالي وعقدت العزم على طرقه من جديد.

وكأن الظّل قدري والصّمت! تلك المرارة التي أورثنيها ذلك الاختلاف الذي لا أستطيع إخفاءه، بل أؤكده بأضمومة ضفائر أفريقية، شعور لا أستطع إلحاقه بشيء خالص من الرّضى ولا من الرّفض، فيبالغون عند مدعاة الاهتمام والتّبجيل و عند الرّفض و الإقصاء.

أكثر من مرّة أباغت رأسي، وأنا طفلة، متلبّسة بالسّؤال الكافر: لِمَ فعل الله ذلك ورضي به، أيكون الله عادلًا وهو يبتلينا بلاء لا نملك له حولًا و لا قوة، فلا نحن من الأسوياء مثلهم و لا نحن من ذوي الحاجات الخصوصيّة و العاهات كالأعمى و الأعرج و فاقد العقل؟ لا نملك من أمرنا شيئًا، مجبرون على حمل بلوانا جيلًا بعد جيل. لكنّ السّؤال الكافر سرعان ما يغادرني، أجدني جميلة الملامح، آبنوسيّة اللّون، متيقّظة الفكر... لا شيء يبرّر سؤالي، لكن أشياء كثيرة تبرر ثورتي التي ستكون طوق النّجاة من تدمير محقّق.

انشغلت بالملفّ قبل السّفر بشهور، أتتبّع الأخبار وأرصد المصادر التي عنت بسبر أغوار فئة بدأت تفرض وجودها إعلاميًا من خلال أعمال عنف وشغب تقع هنا أو هناك، وهجمات إرهابيّة تفتك بصمت الدّولة الشّرعيّ الذي تنتهجه فرنسا والأوطان الأصل.

تجتهد السّياسات في استقطابها أو جعلها غير مرئيّة. تمامًا كما يحدث لمحافظة سان سان دونيس -حيث اخترت أن تقطن رقيّة-، يحلو للأطفال تسميتها ب ال (نوف/تراو)، أي التّسعة /ثلاثة اقتصارًا على الرّقمين الأوّلين للرّمز البريديّ للمحافظة 93، نوع من التّضليل على اسم المحافظة الذي اقترن بالجريمة والعصيان والفقر وأنجبت ما يسمّيه نيكولا ساركوزي ب (الرّاكاي /الحثالة).

تجوّلت كثيرًا يوم أمس في بوبيني، مركز المحافظة الاقتصادي و الإداري، التقطتّ بعض الصّور، فسيفساء بشريّة يقلّ فيها العنصر الأبيض بسفور وإن وُجد ففي أحياء مغلقة، يكثر العنصر الأفريقي و الآسيوي و العربي. لكلّ نصيبه من البازل، لكل دكاكينه ومغازاته وحياته الاقتصاديّة و الاجتماعيّة في تجاور صامت مندسّ مريب...

(بوبيني مركز المخدّرات والجريمة) تلك كانت الفكرة التي تتناقلها الأخبار والصّحف. تروق الفكرة للجميع بالدّاخل والخارج، فبعض الأفكار لا تستفزّنا بما يكفي، نتداولها بكثير من التّجرّد، لكنّها بشكل ما تريح الجميع بتثبيت شعور بأفضليّة ما.

اللّيل ثقيل ثقل خطوات رقيّة في ذلك الشّارع الخالي إلاّ من بعض القطط السّائبة و من عربدة الغربة و هي تطوف بين العمارات الشّاهقة، و رقيّة تمضي بهدوء متمرّس، أتبعها بقلق أشدّ تمرّسًا، تغزوني هواجسي: سوف ينقضّ عليها متشرّد في أوج حالة الفقد انقضاض صيّاد على فريسته، سيقفز من غير موضع، سيمسك بحقيبتها اليدويّة شبه الفارغة إلاّ من بطاقة الاشتراك السّنويّة في شركة النّقل الباريسي و بين الضّواحي و بطاقة تعريف وطنيّة و علبة مناديل ورقيّة و سلسلة مفاتيح مقرّ عملها و بيتها بالطّابق الثّامن من العمارة عدد 150 في حيّ قامبيتا ببوبيني...

سوف يباغتها، يكفيه الفوز ببقيّة العشرة أورو التي لا تفارق حافظة أوراقها والتي قد تكفيه ليبتاع أعقاب لفّة حشيش لم تعد حكرًا على المترفين، ففي كلّ حيّ مروّج وعسس ومستهلك.

يقفون عند أقدام العمارات الشّاهقة، شباب في مقتبل العمر يسامرون اللّيل ويشاكسون النّهار. ينقطع الكثيرون منهم عن الدّراسة مبكّرًا، تتلقّفهم البطالة والعوز وعصابات الحشيش.
فرنسا النّور والحرّيّة والحبّ أصبحت غولًا كبيرًا يبتلع أطفاله الذين يحملون ملامحه ولا يحملونها في آن. نسل غير مرغوب فيه

كما قال لي نيكولا قبل سنوات، حمل ناتج عن علاقات فرنسا المشبوهة بالأوطان الأصل.

توقّفت عن الكتابة برهة ألتقط فيها أنفاسي، انتبهت إلى عدد المسودّات التي لوّنت بياضها ومحوت سوادها غير مرّة، عدد من القضايا يشغلني، أودّ أن ألقي بها هكذا على اللاّب توب وأضغط على زرّ الإرسال لتصل إلى حيث لا أدري. لكنّني عدت أهرول وراء رقيّتي وأنزع كلّ شوائب الصّدف، ففي الكتابة لا مجال أبدًا للصّدفة.

الجميع في الحيّ يعرف رقيّة الكادحة، يعرفون مواقيتها ولا يتحرّشون بها البتّة، النساء و الأمّهات في أعراف الأحياء الشّعبية خطّ أحمر، لا يمسّهنّ أحد بسوء، باستثناء اللّواتي يتعمّدن التّمرّد، فيرتكبن فعل طيش ويخترقن حدود (القبيلة) المرسومة سلفًا: أن تلتزم بغضّ البصر وتجنّب مخالطة الذّكور والغرباء من الأحياء المجاورة أو أبعد. الحيّ هنا هو الوطن وما سواه غربة.

سرت فيّ طمأنينة و قليل من اليقين، قلقي عليها هو قلق الكاتب، فهو كائن عصابي يسكنه الخوف على شخوصه و هو خالقها من

وجود و من عدم، ينعجن فيّ القلق بالخوف الذي تمارسه وسائل الإعلام حين تعرض وقائع الأحياء المهمّشة في كلّ دول العالم مستهدفة سذاجة المتلقّي لتوجيهه حيث يتّجه ريح السّياسة و القوى الاقتصاديّة.




بدأت مسودّة رقيّة ولكنّي لست راضية على الاستهلال!
هناك شيء ينفلت منّي، أركض خلفه فيختفي ويتوارى، لم تسعفني التّنظيرات ولا الرّوايات التي قرأتها في تمثّل استهلال يروق لي. للمرة الألف أستحضر استهلالات موسم الهجرة إلى الشّمال، الغريب، المزحة، الياطر، شرق المتوسّط وغيرها من الرّوايات الحبيبة إلى ذائقتي، ولكنّني أعود دائما خالية الوفاض. ليس توجد نظريّة خالصة ولا استهلال خالص. كلّ رواية تستهلّ نفسها بنفسها وكأنّها تتحدّى الكاتب نفسه وهو خالقها. استعدت بذلك ثقتي بأنّ الكتابة حرّيّة وحريق، وأنّه من حسن حظّ الإبداع أن يكون أسبق على النّقد ممّا يترك حيّزًا للحرف حتّى يتبرعم في تربة ثملة بخمر الجنون.

"الرّواية جنس لم يكتمل بعد"، لعلّها المقولة الأصدق، ندركها دون أن ننزع عنّا تلك الرّغبة في البحث على ملامح اكتمال دون وعي منّا- ربّما- بأنّ اكتمالها يعني موتها.

لعلّ جلالتها تكمن في كونها كالمتاهة حيث لا شيء يبدو جليًّا، لا المدخل واحد ولا المخرج واحد، وبين تجربة وأخرى وجود وزوال وشكّ ويقين ولعبة تقاطبات وتقاطعات.

عدت إلى أوراقي مرّة وإلى اللاّب توب مرة أخرى، تخبو عزيمتي وتشتعل كجمر شتويّ في لعبة غنج وتمنّع. مثلي كثيرون يكتبون ويمزّقون عشرات المرّات أوراقهم بحثًا عن تجربة ولو واحدة يتحقّق فيها مشروع الكتابة، يبحث الكاتب عن قضيّته ويبحث القارئ عن كاتبه، ليصبح النّصّ رصاصة تخترق الواقع وتحدث فيه نوافذ.

تقتضي ممارسة هذا العشق بعض الانفراد باحتراقات كنهها الفوضى ومقارعة شياطين الذّات والآخر، يفتضّ الكاتب بكارة ورقه ويفتضّ الكلام بكارة الكاتب.

أعبث بخلق شخوص وإعدام أخرى، أبعث من مات وأواري من عاش، أعبث بتعديل هذا للأجمل وذاك للأسوأ، وأحتكر لي الفعل دون غيري. أسيّر شخوصي والحكاية، غير أنّي أكتشف أنّها هي الأخرى تسيّرني. أرغب كثيرًا في كتابة رواية بلا رقابة، رواية بتفاصيل موبوءة عن الحبّ أو الموت، عن الخيانات والسّمسرة، عن الدّين والسّياسة والجنس، عنّي وعنك، لكن مشانق الجلاّد تعيدني إلى جادّة السّبيل فأجترّ كما الجميع حرائقي.

لا شيء حقّا يعنيني سوى أن أنصف رقيّة فأكتبها كما أعرفها دون البحث عن قطع من (السّيليكون) أحشو بها فراغاتها المتعدّدة. مثلها آلاف يعيشون في صمت ويغادرون في صمت دون أن يأبه لوجودهم أو لغيابهم أحد.

هل يكتب الرّوائي شخوصه فقط لإنصافهم و ليهزم النسيان ، أم هو يحاول إنصاف نفسه و تخليدها؟

فينزرع في شخوصه لتعديل قدر لم يكن له أو لتأكيد حظّ حالفه، و يجرّب فعل الخلق بتخييل مساحة من الوهم يعيد بها تشكيل الدّوائر حوله؟

هل يكون هذا العبث والهذيان نوعًا من الثّورة ضدّ الظّلم الواقع كثيرًا حولنا ورفض التّصالح معه؟ يخيفني الاطمئنان إلى فكرة أسجن فيها نفسي كما يقول الرّافعي، فيسكت فيّ قلق الوجود ويسحب منّي مشروع الكينونة التي اخترت، ويجبرني على تقبّل رداءة الواقع وتقديسها كما يفعل الكثيرون. لو أنّنا نظفر بهذه الإجابة النّهائيّة على كلّ الأسئلة ماذا عساه سيشغلنا بعدُ؟

قلت ذلك ذات قهوة تونسيّة صحبة لورانس ونحن نحتسي الجمال بمقهى سيدي بوسعيد العالية، فكّرتْ برهة وكأنّها تنتقي كلمات تخفّف بها من حدّة الصّفعة التي سأتلقّاها وهي تجيبني:

" (إيه بيان)، كيف أقول لك"

قالت ذلك ثم أطرقت برهة من الزّمن، تتفحّصني مليًّا كأنها الطّبيب يجسّ نبضي، واصلت:

" لعلّه اليقين الذي تستقبلون به الحياة والموت هو ما يجعلكم لا تطرحون الأسئلة. وإن طرحتموها فإنّ الخوف من السّؤال يؤدي بكم حتمًا إلى اليقين. بعض الأسئلة عندكم تمرّد وشيطنة وكفر، فتجتهدون في طيّها ووأدها. أنتم يا عزيزتي لا تفعلون غير تدوير الأسئلة وتدوير الإجابات."

أعترف الآن بأنّه هناك من الأسئلة ما يركض في الذّهن ركضًا، فيفسد عليّ المتعة باليقين أحيانًا ويؤرّق ليلي. أحتسي مرارة الخيبة والخوف من التّصريح بما يشغلني وأعمد إلى انتقاء الكلم بشدّة حتّى لا أخدش يقين الآخرين. يحرّكنا الخوف ونحن نكتب، يسكننا و نحن نفكّر، لا يغادرنا مطلقًا.

وجدتني أتأمّل أبطال روايات قرأتها وكلام لورانس، أستعيد تعليقات قرّائي أحيانًا وأنا أنشر نصًّا مثيرًا على صفحتي الفيسبوكية، تعليقات اكتشفت من خلالها أنّنا حقًّا أمام خيارين اثنين: السّلامة أو الموت.

كل شيء يكشف ذلك الارتجاج السّاكن جماجمنا، نحلم بالحرّيّة ونهابها، نبرع في خنق أنفسنا والغير، نحلم بالصّوت ونستمرئ الصّمت، جميعنا نختفي وراء هدأة التّلقين ننتظر أن تتغيّر أقدارنا

بعصى سحريّة. يتناسل الخوف ويتسلّل إلى حروفنا فنختار هدأة التنزّه في غابات أحلامنا الخرافيّة وتتشابه رواياتنا...
أناور الخوف و يناورني، رقص على الجمر تختلف فيه خطانا و تأتلف، لإثارة الأسئلة دون البحث عن الجواب.




بييب بيييب بييي......ب..... بوم....

فرامل تحكّ الإسفلت، تشعله نارًا. يدوّي منبّه سيّارة، فيشطر الصّمت نصفين. صوت ارتطام، وجسم لا شكل له يُرفع عاليًا ثمّ يسقط مرّة واحدة...

أهرع ... أجري قليلًا ثمّ أتوقّف!

ماذا حدث؟

من أين ظهرت هذه السّيّارة الملعونة، كيف لم يتحكّم بعجلاته والمقود عند الإشارة الضّوئيّة.

كيف تسلّل إلى المشهد هكذا دون أن أهيّأ له ولا أن أحسب له حسابًا، هل طفَت هواجسي على الورق وأرتسم لا وعي المذعور الخائف أبدًا من حوادث الطّرقات منذ أن فتفت جرّار الحظيرة أبي ونثره أشلاء، فتمثّل لي حادث السّيّارة بينما أقتفي أثر رقيّة وهي تشقّ الطّريق إلى العمارة حيث شقّتها؟ هل يلتبس الأمر هكذا على الكاتب فيخلط بين شخوصه وبينه وبين التّخييل والواقع فترتبك حبكته بارتباك أفكاره؟ وأين منّي تلك الأقنعة التي ألبسها وأنزعها حسب المقام، فأكون أنيسة عزّوز الكاتبة وأنيسة عزّوز الحبيبة هكذا بلا شيء يحدّدني...

هذا الغبيّ لم يكن ليدهس رقيّة وحسب، إنّه يدهسني معها أيضًا وأنا بصدد القيام بمهمّتي، من العسير عليّ أن أقبل بسائق أهوج يقتلع رقيّتي ببساطة فائقة، ولمت نفسي على سرحاني وعدم التّنبّه إلى الإشارة الضّوئيّة ورقيّة تشقّ الشّارع الكبير.
كيف ظهر في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل حيث لا ضجيج غير حركة أناملي على اللاّب توب وهي تخطّط لبقيّة تفاصيل الرّواية...

ضجّ المكان بجمع غفير من النّاس، كأنّما كانوا متأهّبين لمثل هذه اللّحظة وهذا الارتطام الذي يبدّد شيئًا من رتابة الوقت في الأحياء الشّعبيّة، تقافزت الأجسام هنا وهناك، كثر اللّغط والهرج وتنامت أصوات الحكايات المنسوج بعضها سلفًا وبعضها للتّو...

" إنّها السّيّدة رقيّة! "
" السّيّدة رقية؟ "
" رقيّة التي..."
" نعم، نعم هي بعينها... وهذا توقيت عودتها من الشّغل... "
" سيّدة طيّبة والله! لعنة الله على الغربة وعلى الزمن الرّديء الذي استعبد النساء والرّجال، تعمل السّيّدة رقيّة إلى ساعة متأخّرة من

اللّيل بينما ينعم الأرباب هانئين. هذه هي فرنسا! جري بلا توقّف، استغلال فاحش، يطحننا رأس المال ويسرق حيواتنا مجانًا "
يتحول الجميع إلى مصلح سياسي و رجل دين و يتحول الحديث عن رقيّة إلى حديث عن غلاء المعيشة و زحف الفقر على الجميع: "فرنسا لم تعد فرنسا!"، قبل أن تنتهي الجلبة. بعدها يعود كل إلى مشاغله.
" لعلّ الله كتب لها مخرجًا من ذلك الشّقاء الذي ترزح تحته،
لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم"!

تخفت الأصوات برهة ثمّ تتعالى، وأنا بين الأجساد أتسلّل في ذهول، يربكني هذا الجمع المتجمهر دون تخطيط منّي وهذا التّحوّل المفاجئ في الأحداث، صار الجميع يتلاعب بي، يهتك إرادتي في سير الأحداث إلى حيث أريد ويضطرّني للحذف أو الزّيادة...

امتلأ الشّارع الكبير فجأة، حضرت سيّارات الإسعاف والشّرطة، اصطفّ الغرباء الذين يطول ليلهم عادة وراء النّوافذ في مثل هذه الأوقات من السّنة، يشغلون فراغاتهم بالنّظر في جثّة الهالكة ويمنحون أخيلتهم فسحة للحكي والنّسج والفتق والرّتق.

يقترب طبيب الإسعاف من الجثّة، يعاينها مقرفصًا، يتفحّصها على عَجلٍ ولا يحرّكها، يعمد بسرعة إلى إسدال رداء أبيض وحثّ مرافقيه من الطّقم الطّبّي إلى تحويلها للمستشفى واستكمال الإجراءات، فيما كان رجال الشّرطة يعاينون حيثّيات الحادث.
يستمعون إلى كلّ الرّوايات إلاّ روايتي.
كنت أستمع إلى تلعثم السّائق وهو يقول:
" فجأة تحوّل المقود بين يديّ كتلة من الحديد البارد وتوقفت المكابح عن العمل...و. لا أعرف لمَ حدث ذلك وكيف! "
مرتبكًا، قال كلامًا كثيرًا لم أكترث له إطلاقًا، إذ هو في نهاية الأمر غريب عليّ، لا أعرفه و لا حاجة لي به في حبكتي، و لا يمتّ إلى شخوصي بصلة، لا ضرر إذن من تهميشه كما يهمّش الواقع شخوصًا تحوّل مجرى التّاريخ.
رغم ذلك لم أستطع منع نفسي من التّفكير به: لعلّه بائع غبرة سيّء الحظّ، في مهمّة توزيع بضاعة ما في هذا الوقت المتأخّر من اللّيل حيث تعقد الصّفقات بين الكبار ويتولّى تنفيذها الصّغار.
لعلّه واحد من أولئك المغرّر بهم في بلد تطحن البطالة أطفاله المهجّنين.
أسئلة عديدة تحاصرني دون أن أجد لها إجابة ودون أن يتشتّت ذهني عن مصابي في رقيّة...

هل تتحدّاني رقيّتي؟ وتقرّر الموت هكذا في غفلة منّي؟ هل يجوز عليها حدّ المنتحر وهو يسحب الفعل من القدر فيكون إلى النّار خالدًا فيها وبئس المصير؟ فهل أحرق كلّ أوراقي التي تمتدّ على سطورها رقيّة؟

كانت تؤدّي طقوسها كلّها كما رسمتها لها دون أن تبدي اعتراضًا، مجبولة هي على الطّاعة والخضوع، أجعلها تنهض كلّ صباح، وفي المساء تهمد راضية، تؤدي كلّ واجباتها بلا نقصان، ويضطرّني ذلك أحيانًا إلى تذكيرها بكوني رحيمة بها أكثر ممّا تتصوّر...

للنّاس علاقة غريبة بالرّبّ، يحرص المسلمون على الصّلاة والصّوم، والمسيحيون على ارتياد الكنيسة واليهود على إقامة شاباط، كلّ يقيم شعائره واثقًا من كونه الأقرب إلى الله، بينما يفوتهم الكثير من الصّدق ونقاء السّريرة وحبّ الآخر. إلاّ رقيّة! فهي امرأة دؤوب تستقبل الأشياء بقدريّة عجيبة وكأنّ ما عداها لا يعنيها، تبدو لي مسكونة بقلق العبادة، سألتها ذات مرّة:

"يا رقيّة! هل تعتقدين أنّ الله الكبير سيعاقبك على هفواتك الصّغيرة؟ أو أنّه سوف ينتقم منك لمجرّد أنّك أخلفت موعد صلاة هو العالم بالخفايا وما في الصّدور، الرّائي إليك مجبولة على الذلّ والتّعب...

إنّ الله الكبير يا رقيّة ينظر إلى قلبك ويبارك خطوك ولا يحمّلك غير ما في وسعك وإلاّ فلا معنى لأنْ تكوني له عبدة ".

اكتفت بهزّ رأسها مستنكرة، لم تنطق بكلمة، فقط قرأت في عينيها شيئًا من المكابدة، وها هي تتركني في ورطة لتذكّرني بحجمي، أنا التي كنت أخالني سيّدة خلقها والحكاية لست غير واهِمة وأنّه كما تمرّد إبليس ورفض السّجود لآدم يتمرّد أبطال حكاياتنا، و يقرّرون بدلًا عنّا.

ربّما كنت بلا رحمة إزاءها، ربّما حمّلتها أوزارًا لا طاقة لها بها، أحاول جاهدة تقبّل عصيانها واعتباره وعيًا بذاتها، شخوصنا هم أطفالنا، يسعدوننا كما تسعد أمّ حين يكبر طفلها ويحلّق بجناحيه، حتّى وإن كان في تحليقه موتها، ويحزنوننا كما نحزن لفراق عزيز.

عليّ أن أعيد اعتباراتي، وأن أتقبّل فكرة موتها دون اعتبار انتحارها معصية، إنّه خيارها وهي سيّدته، إذ لا معنى لفكرة العقاب والثّواب حين نخلق شخوصًا مسلوبة الإرادة محكومة بخطّ سير نحن نقرّره...





اليومُ الرّابعُ في باريسَ

السّاعة السّابعة والنّصف مساءً، يرنّ جرس الباب الرّئيس للعمارة، أنظر في (الفيزيوفون) والوجه المبتسم: هي! لورانس.
أدعوها للصّعود، أفتح الباب، تحيّيني بلطف كعادتها وتتوغّل في فضاء الشّقّة، تنزع معطفها الأخضر الدّاكن الذي يلبسها فيزيد من جمال عينيها، تضع حقيبتها اليدويّة عند قدميها، وتجلس على حافة الأريكة. يغزوني عطرها حدّ الزّكام، تحرّك رأسها يمنة ويسرة لتحصر شعرها الأشقر في ربطة بسيطة تتدلّى بين الكتفين، تجلس قبالتي ضاحكة وتبدأ في تلاوة اقتباسات لا أعرف أصحابها، ولكنّني أعرف جيدًا هوسها بالشّعر والفلسفة.
" كان أبي شاعرًا"، تبتسم وهي تخبرني بذلك في كلّ مرّة على سبيل التّندّر، ثمّ تسكت وتحدّق بي حالمة، قالت:
" لا بدّ أنّك تشعرين بغبطة لتواجدك بباريس، في حلّ من كلّ التزاماتك العائليّة... أنت هنا فقط للعمل... وربّما أيضًا للاستجمام"!
لم أعر ملاحظتها تلك اهتمامًا كبيرًا. فالغربيّون يبرعون مثلنا في نسج الأحكام المسبقة، يملكون حقائب من الأفكار المسبقة عن

وضعيّة النّساء عندنا، ويتخيّلون لفرط حرّيتهم مقارنة بنا أنّ نساءنا سجينات، يغذّي هذا الحكم المعوجّ كلّ (فانتاسم) الحرّيّة والتّقدّم مقابل التّبعيّة و التّخلف، و يطمئنهم إلى بعض امتيازات ينسجها المخيال على ضفّة أو على أخرى... أنظر إليها، أبحث عن شيء في عينيها لست أدركه بالضّبط. لا شكّ أنّها كانت تهذي! نصف كلامها هذيان ونصفه الآخر أيضًا، رغم أنّها محقّة بعض الشّيء. فالاستجمام ليس لازمة من متلازمات ثقافتنا ولا ترفًا نمارسه بعنف كما يفعلون هنا. سألتها من خلف ابتسامة خفيفة عن سرّ قدومها المفاجئ إليّ ذلك أنّنا التقينا منذ يومي الأوّل.

قالت: " لقد أخلف الوغد وعده وعليّ عقابه مرّة أو اثنتين... هذا كلّ ما في الأمر.

وبما أنّني كنت غير بعيد عن هنا فقد وجدت الفكرة رائقة أن أسلّم عليك مرّة أخرى... إلاّ إذا كان هذا يزعجك... أو أنّك على موعد ما، فيمكنني الذّهاب ..."

قالت ذلك ضاحكة مشاكسة.

في الحقيقة لم يكن مجيئها مزعجًا لي، ولم أكن أجد فيه إلاّ حركة جميلة تخرجني من روايتي وتعيدني إلى ملفّي الذي صار يخنقني.

الحديث ممتع مع لورانس، خفيفة ظلّ، تنسج الحكاية تلو الحكاية وتضحك كطفلة...

جلست بدوري، نزعت نظّارتي وأجبتها بهدوء يشبه الشّكوى:
" جئت أبحث هنا عن حكايا مهاجرة وعن هويّات من ورق!"
قالت. " ثقي بك! "
قلت: " نعم!"
دون تفكير قلت ذلك واقتلعت نفسي من نوازعي وأفكاري...
سواء عليّ أن أثق أو ألاّ أثق فالأمر برمّته ليس هيّنًا، لزمت الصّمت وتحرّكت في الغرفة الضّيّقة. لم أكن أملك ما أقدّمه لها غير هذا الشّراب من النّعناع السّاخن و بقايا بسكويت دياري كنت جلبته معي ليكون وَقودي في ساعات الأرق. قبلته برضى وأذهلني قليلًا أنّها لم تبد امتعاضًا بل تناولته بسعادة خاصّة وابتسامة شكر ترفرف على شفتيها.
" حدّثيني عن الوغد يا لورانس! "
لا أعرف مدى استعدادها لفتح مغاليق أشجانها التي تثير جدًّا فضولي، تجيبني كما لو أنّها تنتظر السؤال لتطلعني على قصتها الجديدة.
" كان سجينًا!
لم يمض على خروجه من السّجن إلاّ أسبوعان ويبدو أنّه في حالة سكر بالحريّة، فيعبث قليلًا بالوقت... وبي! "

لم تكن لورانس متحرّجة من ذلك، حاولتُ قمع علامات الدّهشة بداخلي حتى لا تظهر على وجهي وعينيّ اللّتين اتّسعتا، واكتفيت بالصّمت...

أعيد التأمّل في حركاتها وسكناتها، أفكّر بأنّ انتظارها سجينًا سابقًا من قبيل التّفاهة واللاّمبالاة الغربيّة الصّرفة، وكأن لورانس بلا عقل يردعها عن حماقاتها المشابهة لهذه.

استرخت على الأريكة، قالت وهي تغرق أفكاري في زرقة عينيها:

" فوجئتِ؟ "

لم أجد بدًّا من الإجابة كذبًا أن " لا!"

استمرّت تدوّر الكأس الدّافئ بين يديها، وقالت:

" كنت قد تحصّلت بشقّ الأنفس على بطاقة زائرة دائمة للسّجن المدني بفيل فرانش، غير بعيد عن مدينة ليون في الجنوب الشّرقي. كنت آنذاك بكليّة العلوم الاجتماعيّة، منشغلة بأطروحتي، اشتغلت على ثيمة السّجين متعّدد التّجارب، كان هو من ضمن مجموعة وقع اختياري عليها".

تسكت برهة، تضحك وتضيف:

" كان شقيًّا جدًّا، يضحكني كثيرًا.

تعرفين يا أنيسة! يضحك كطفل ويتجهّم كعجوز فاتته الحياة...

كلامه أثار فضولي حين سألته عن سرّ تخصّصه بنشل العجائز، قال

أنّه لا يفعل شيئًا بمحض الصّدفة، رغم أنّ الصدفة وحدها ما ساقه إلى هذا القدر.

أذكر أنّه قال " وماذا تخسر عجوز عاشت حياتها بالطّول والعرض إن هي فقدت حقيبة يد تحوي بعض أوراق نقديّة؟

صدّقيني مدام -قال- أحاول دائمًا أن أكون حذرًا حتى لا تسقط إحداهنّ على الأرض ".

ضحكتْ وهي تسرد ذلك، قاسمتها الضّحكة وأضفت أنّ سجينها صاحب ضمير حيّ وقلب طيّب.

كنت أقول ذلك على سبيل السّخرية التي لم تغفل عنها لورانس، انسابت في تحليلات ورؤى تؤكّد أنّ المجرمين الصّغار من طرازه يتجمّلون كثيرًا ويملكون شعورًا بالشّفقة على ضحاياهم تفوق ما قد نتصوّره، وأنّه على المجتمع أن يواجه نفسه وأن يتساءل لماذا أضحى مصنعًا كبيرًا يُفرّخ المنحرفين و لماذا يتحوّل طفل كمحمّد إلى شابّ نشّال و لا غرض له غير أن يلتفت المجتمع إليه و يعترف به.

لا أعرف إن كان الغربيّون نصف عقلاء أو نصف مجانين أو نصف أنبياء... يطرحون أسئلة نجيب عليها نحن ب (المكتوب)، ويجيبون عليها بطرح أسئلة جديدة واحتمالات ونظريّات لا يحكمها قدر و لا صدفة.

" المنحرف منحرف يا لورانس! قلبه الرّحيم لا يعفيه من جريمته".
تنبس شفتاي بكلمات في غفلة من رأسي، لم تكن لي نيّة
إزعاجها بقدر ما كان ردًّا عفويًّا، قلّبت الأمر على وجوهه ولم
يكن لي من مخرج سوى أن أعرّج على حكايات القلب.
قلت بصوت يتراخى كأرجوحة:
" وتواعدينه؟ "
انفرجت عيناها، شعّ منهما بريق، قالت بصوت خُيّل إليّ أنّه مملوء
بالشّجن:
" نعم... أحبّه.
وهل يُمنع المساجينُ من الحبّ؟ "
غريب الحبّ عندهم وسهل، لا يعترف كثيرًا بالفوارق ولا يتعلّق
بشؤون المنزل و لا بصفقات الامّهات التي تنعقد خلف محارمهنّ و
هنّ يرقبن بنات القرية يتراقصن في مواسم الأعراس و لا حتّى
بالعراقة و الأصل، كأنّه متعلّق فقط بالصّدف العجيبة و
الصّفقات التي يعقدها القدر و يفلح أحيانًا في نسجها بدقّة
متناهية.
تغيب لورانس كثيرًا عن عوالمنا وهي تحدّثني، تلهو كطفلة بما يقع
بين يديها، تقضم أحيانًا أظافرها، تعتدل في جلستها وتكثر
حركاتها، هو التوتّر الذي يعلن حالة العشق، أعرف هذه الحالة

جيّدًا منذ كنت طفلة وشبّ نبضي على أحمد. لكنّها سرعان ما تعود بابتسامتها الصّافية ولكنتها الباريسيّة، تنظر إليّ في عينيّ وتنتشي حين تراني تراجعت قليلا في موقفي.

" لا. " قلتُ،

" ليس ممنوعًا على السّجين الحبّ." لكن هل يمكن لعاقل أن يحبّ سجينًا؟"

أتحرّك من مكاني، ألتقط جهاز التّحكّم عن بعد وأشعل التّلفاز. كلّ نشرات الأخبار كانت قد انتهت منذ أكثر من ساعة، لورانس جنّبتني لغط التّحاليل والنقاشات حول الدّواعش العائدين من بؤر التّوتّر من جهة، و حول انتفاضة السّترات الصّفراء من جهة أخرى، و اللّغط حول الصّهيونيّة واليهوديّة التي تبثّها القنوات وجبةً يوميّة للمشاهد وتزيد من توتّر الوضع...

لم يكن من المسموح في الشّقّة بالتّدخين، تحترق لورانس رغبة في سيجارة، تتناول علبتها الرّشيقة، تخرج منها واحدة، تبدأ في مداعبتها بين أناملها الرّقيقة ولكنّها لا تشعلها. أراقبها وأستقرئ حالة الإدمان التي تدفع بها إلى هذه المداعبة. أتذكّر السّاعات التي كنت أقضيها في تأمّل المدخّنات بإعجاب، كنّا آتيات من عمق الصّحارى، نشمئزّ من المدخّنات ونحسدهنّ. قادرات هنّ على

التحدّي والتّمرّد ومستكينات نحن للعرف و العادة. مجرّد حبّي لأحمد كان كفيلًا ببثّ الرّعب في قلبي.
تستند إلى الأريكة، تقول:
" وُلدت في السّجن! "
حين تفوّهت لورانس بهذه الكلمات القليلة جدّا لم تكن تعلم أنّها تخلخل يقيني من جديد، يقيني بأنّ الحياة تسير وفق منهاج معيّن ولا تحيد عنه، منهاج الطيّبين للطيّبات والسّيّئين للسّيّئات ووافق شنّ طبقة. منهاج جذّرته فينا بعض الكتب وزكّته جهات ما، لعلّه حيلة الأوّلين للتّخفيف من الخيبات المحتومة. كم تقبّل الواحد منّا من ظلم على أساس (المكتوب على الجبين تراه العين) وعلى أساس أجر الابتلاء.
عيّرني بعض زملاء الدّراسة يومًا، فشكوت إلى أحد أساتذتي، كان ردّه " أنّ الله إذا أحبّ عبدًا ابتلاه، أبشري بالجنّة!"-. جاء كلامها يبعثر يقيني. كلّ شيء هنا أسهل بكثير: الحبّ والموت والحياة والانحراف والتّوبة ... كلّ شيء سهل هنا! كلّ شيء...
" جدّي لأمّي كان خشن الطّباع وجدّتي سيّدة ريفيّة تتداعى دموعها لكلّ صراخ يصدر عن ذكور العائلة وجدّي... جدّي وحده عالم من الصّراخ والسّوء...

ومارتين - أمّي- طفلتهما الوحيدة بعد الذّكور الثّلاثة وقبل الأخير...".

واصلت حديثها بنبرة لا تشبه النّجوى ولا الشّكوى ولا تحمل شيئًا من الوجدانيّة يمكن تمييزها فتشعر بأنّ الكلمات تخرج منها خالية فارغة من كلّ انفعال ولكنّك تمتلئ انفعالًا بمجرّد وصولها إليك.

أعجبت بشجاعتها وتجرّدها ممّا تنقل من تفاصيل هويّتها وحسدتها على ذلك مرّتين: مرّة إذ تعلن عنه ومرّة إذ هي تفاصيل لا تُرى ولا تدينها على الإطلاق.

إنّهم يختلفون عنّا كثيرًا! نحن لا نبوح بسرّ خطير كهذا... كم اختلقنا صِغَارًا وكبارًا هويّات وحكايات وأوطانًا تتناسب وحيثيّات الظّرف...

فعلتُ ذلك أكثر من مرّة في صغري وحتّى في شبابي، كان آخرها حين سألني أحد أساتذتي الجامعيّين عن جنسيّتي.

قلت: " تونسيّة"

اقترب منّي وأضاف:" أقصد جذورك..."

قلت في كلمة واحدة وبإصرار:" تونسيّة! "

لم يكن يخطر ببالي أنّهم في الغرب أيضًا يتقصّون الجذور ...

قال:" أقصد هل كان أبواك تونسيَّيْن؟ وأجدادك؟ "

يعيدني سؤاله إلى لوني، وكأنّ سوادي يتعارض وتونسيّتي، الكلّ يعرف تونس العربيّة المسلمة البيضاء! هكذا تبدو في الكتب و الصّور، لا أثر للسّود و البربر و اليهود على الخارطة السّياسيّة و لا حتّى على شاشة التّلفزة.

قلت له: " أهـــــا، تسأل عن أجدادي الأوّلين! "

لم أبحث في جرابي عن كلام كثير أقنعه به، كان يكفيني أن أحرّك ما في صندوقي الأسود كما يحرّك لاعب اليانصيب قصاصات الحظّ، فأظفر بالقصّة... بعض كلمات أغلّفها بالقليل من الشّحنات الشّعوريّة تكفي لأقنع العالم من حولي برواية تناسب الحالة.

ولكنّ الرّواية التي سأسردها عليه كانت الأحبّ إلى قلبي، كان يُخيّل إليّ أنها الرّواية الأسلم، وأنّ جدّة لي كانت قد نسجتها أثناء واحد من كوابيسي أو أحلامي وخاطتها على مقاسي، تكبر معي وتمتدّ بامتدادي! أنمّق تفاصيلها وأورق ما تعرّى منها بوجعي وعنادي، هيّأت نفسي بأن أحكيها إلى أطفالي لاحقًا. لم تقنعني أبدًا حكاية أمي وهي تقول لي في كل مرّة متشنّجة مستنكرة أنّنا من نسل ولد استبناه ولي الجهة الصّالح وجعل منه ابنًا له إلى جانب أبنائه الأحد عشر وإنّنا بذلك جميعنا إخوة ولا يفرّقنا غير اللّون.

وترفض أن أجيبها كما في كلّ مرة:

" على كلّ حال ليس هناك حكايات مكتوبة يمكننا الانضواء تحتها حين السّؤال"...

أقليّة نحن كما يقولون في فرنسا، ولكنّنا في تونس لسنا حتّى أقليّة مرئيّة، بل مجرّد ظلال تستمدّ تاريخها من لغة النّاس والشّارع حين نسمع كلمات لا تثير حفيظة أحد، بل يستخدمها حتّى السّود فيما بينهم (عبيد أو وصفان، شواشين) أو كلمة (عتيق) التي رغم ندرة استخدامها في الحيّز العام إلاّ أنّها لا تزال مرقونة على أوراق البعض الثّبوتيّة، تسميات تعكس عنفًا تصالح الجميع معه و ما عاد يخدش حياء أحد، و لا احتجاج من أيّ كان، وكأنّ الطّبيعة والميلانين وحدهما المسؤولان على هذا التّقسيم.

ومن يجرؤ على مساءلة الطّبيعة؟

ربّما هربا من تلك الحكايات والأسئلة نسجتُ حكايتي واستمرأتها، ولا جُناح عليّ، فالتّاريخ كلّه حكايات منسوجة مستمرأة.

ثمّ إن القسوة، كلّ القسوة هي أن يصرّ الآخرون على اختلافك، فلا تدري أين تضعه من النّعمة أو النّقمة، وأن يطمس التّاريخ قصّة أجدادك وألاّ يعلم المرء من شجرة عائلته أكثر من أجيال لا تُعدّ حتى على أصابع اليد الواحدة...

قلت: " تونسيّة أنا...

وأبي تونسيّ أيضًا...

وكذا جدّي... ولكنّ جدّي قبل الأوّل، صحراويّ من أرض السّودان. أبوه تاجر بعير كان، وقد نسيته القوافل في الجنوب التونسي غرًّا بعد وفاة أبيه – في خلال الرّحلة- مات كما يقول جدّي إثر صراع خاسر مع بعض علل تسلّلت إلى مخدعه، كبر وترعرع في الصّحراء بين رمل ناعم وشمس حارقة، تشقّقت أقدامه من الهرولة في المزارع والواحات إلى أن وقع تزويجه من إحدى الفتيات و منهما تبرعمنا، و لم يبق من جدّي الأوّل سوى لونه متدرّجًا بيننا، فحتّى الاسم تغيّر.

انشرحت أساريره بسماعه حكاية جدي الأوّل، وكأنها خرافة من تلك التي تنسجها جدّاتنا في مخادعهن. ومهما يكن فهي رواية مختلفة عن تلك التي قرأها صغيرًا كأبناء العم توم، ومختلفة عما تقوله اللّغة و تاريخ القوافل العربيّة و القوارب الغربية التي ساقت من السّود أجيالًا نحو (التحيين الهويّاتي).

هو عارف مثلي و مثل الجميع أنّها مجرّد رواية صنعها خيال طفلة دجّنها الصّمت، وأنّ التّاريخ المكتوب- عنوة- يعمل إلى الآن على وأد ما ينام بدفّتيه من حكاياتنا الأفريقية السّوداء. مضى يطرح طروحاته في التّاريخ المعاصر، ولكنّه التقطني في نهاية الدّرس ودسّ عنوانه ورقم هاتفه ودعاني إلى الاتّصال به متى شئت. لكنني لم

أفعل ذلك مطلقًا، أدرك جيدًا أنهم يسرعون إلى الالتفاف على قضية لا تعنيهم كما يفعل القوي دائمًا إزاء من يراه الأضعف. فهمت بالتّعوّد على مثل تلك المساءلات، أنّهم أيضًا يبحثون مثلنا عن رواية أخرى للتّاريخ، يربكهم أن يحاول أمثالي ملء الفراغ الذي تركته القوافل العربيّة عمدًا و بتواطؤ غربي، يبحثون جميعهم عن رواية تَقيهم عبء الحساب وعبء الاعتراف والمسؤوليّة وربّما ما يليه من اعتذار، كما نبحث نحن عن رواية منصفة ... وفي النّهاية كلّنا نزوّر التّاريخ ونعدّل الوقائع حسب الظّرف والحاجة و يبقى الشّك منطقة رجراجة تتناسب و أهواء الجميع. انفرجت شفتا لورانس، بانت أسنانها قليلًا جدًّا وهي تلمّ شفتيها حول السّيجارة وكأنّها تعانقها مخافة أن تنزلق وتتملّص، تلتويان قليلًا وهي تحاول الكلام والسّيجارة في آن، قالت:

" تعرفين يا أنيسة!

كانت صغيرة أمّي حين التقت بآلان، أبي...

كان يحلّيها طيش الشّباب وأعوامها الثمانية عشرة، ويجمّله وقار الكبار وشيب سنواته الأربعين. لا أحد في أسرتها البرجوازيّة يستوعب هذا الحبّ الغجريّ، امتنعت جدّتي عن الخروج في المناسبات، وأحجم جدّي على إقامة الولائم الأسريّة، وتفرّق أخوالي على الكرة الأرضيّة هربًا من حكاية مخجلة.

حملت بي منذ الحميميّة الأولى، وكأنّ جسمها المتمرّد كان متهيئًا لاحتواء ثمرة الخطيئة. عجبًا للخطايا! فهي تثمر دائمًا في كل أرض وتاريخ... كان يدلّلها جدًا، يداعب خصلات شعرها على الملأ، يقلّها خلفه على درّاجته النّاريّة الضّخمة، فتجنح وراءه كحمامة، ولكنّه الغبيّ غفل على حماية ظهرها وظهره.

كانت صغيرة وعاشقة... وكان العرف ضخمًا كتنّين ومنتقم كعاشق مهجور. لم تجْدِها توسّلاتها وهي تراه يتلوّى من فرط ألم داهمه فجأة، بعد كأس من الويسكي كان قد تلقّاه هديّة من أحد رفاقه، وقدّمته هي له بيديها الصّغيرتين وهي تضع يده برفق على بطنها الذي يزداد تكوّرًا ويمتصّ نضارة وجنتيها.

وحدها داخل أسوارها تعرف أنّ قلبها العاشق وفراشها المبعثر دفئًا بعد كل وجبة حب لا يمكن أن يذنبا ذنبًا كهذا. ووحدها بصماتها تشهد على أنّ السّمّ الذي ذهب بحياته كان بالكأس التي ناولته إيّاها، وذهب بحياتها في الوقت ذاته، ومنحني هويّة لست أخجل اليوم منها بعد أن أنكرتها زمنًا في طفولتي."

قالت:

" وأغفر لأمّي وأبي...

لست ثمرة الخطيئة، بل ثمرة الحبّ! لا حكم ولا سجن ولا موت يمكنه أن يمحو ذلك من ذاكرة أمّي، كلما حدّثتني عن أبي سكنت

الغيمة وأمطرت السّعادة من عينيها الجميلتين... أيّ سجن و أيّ خطيئة يمكنها أن تهزم الحبّ أو أن تنزع ثوب الفضيلة عليهما و هما يمنحاني الحياة، فولادتي في السّجن ما كانت قرارًا و إنّما عرَض لا ينزع عنهما جنون العشق و الهيام؟ "

خيّم صمت هادئ بيننا، كأن لورانس تحوّلت في لحظة عابرة إلى شهرزاد الحكايا، لم أجد شيئًا أقوله ويكون أصدق من ابتسامة وعناق.

تسلّم عليّ مغادرة، وألوّح لها بيد مليئة بالغبطة والحسد أيضًا ولست أدري بالضّبط لماذا...

تركت لورانس المكان، ذهب معها النّعاس والكسل اللذين كانا يتملّكاني لحظات قليلة قبل قدومها، نهضت وألقيت نظرة على الشّارع الطّويل عساني أراها ملوّحة بيديها لتقول لي إلى اللّقاء. ولكنها مضت. وحده ظهرها يرقبني، ويندسّ في سيّارتها المركونة على حافة الرّصيف. عجبًا لهم! إنّهم لا يلتفتون أبدًا إلى الوراء، وكأنّ شيئًا لا يربطهم بالماضي و لا بالآخر... يمضون صامتين ملتفتين فقط لما سيأتي.




عدت أستنهض رقيّتي من بين الأوراق وألعن القدر الذي استلّها من بين أناملي وسحب منّي خيوط الحكاية.

أعدّ لنفسي فنجانًا من القهوة السّوداء، ستكون ليلتي قصيرة جدًّا. أضع، على غير عادتي، طابعًا كاملًا من السّكّر، أسلّمني إلى هذا الجنون الذي يدحرني إلى أقاصيّ، أداعب الفنجان وجذعي متكئ على الحائط، حاضرة غائبة في الآن نفسه، أتلصّص على الخارج دون أن أنتظر حدثًا بعينه، رغم الرّغبة الملحّة في أن يحصل شيء ما يبدّد الصّمت.

أتوغّل في الحكاية، أحاول البحث عن خطّ سرديّ جديد تعود به الرّواية إلى الوجود، ولكنّ الصّفحة الأخيرة على المسودّة لا تمنحني شيئًا جديدًا عدا موت رقيّة مدهوسة بسيّارة. أقرأ الصّخب واللّغط المصاحب لهكذا حوادث والجثّة المغطّاة برداء أبيض يلفّها فيما تصعد الرّوح إلى محطّات جديدة، رأيتني في غفلة من رجال البوليس والإسعاف والفضوليين أستولي على حقيبة رقيّة اليدويّة، وأنسلّ من المشهد بصمت...

بالحقيبة حافظة أوراق سوداء، علبة محارم ورقيّة، بوم شفاهورديّ اللّون، حاملة مفاتيح وهاتف ذكيّ لا يحمل شيفرة غلق، انفتح حالما لمسته أناملي وأطلّ عليّ ملفّ أوّلٌ، فثانٍ، وثالثٌ:

رقيّةُ الفايد

-1-

الملف الأوّل

سهيل، أيّها الوطن الضّال!
من منّا كان أكثر اعوجاجًا من الثّاني، من منّا أراد ببراءة تقويم الآخر ومنحه هويّة ما...
كان كلّ شيء ينذر بالكارثة: القلوب المثقوبة، والذّاكرة المعطوبة، والأحلام المصلوبة على أعمدة الحروب التي لمّا تُحسم بعدُ... كلّ شيء كان يقتات من بقايانا ... وأنا وأنت ندوّر الصّور القديمة ونلهو قليلًا بعدّ سنوات الشّوق الذي يقتل كلّ يوم بعض النّبض فينا و يحي كلّ يوم بعض الجرح فينا...
أكــــــــــابر جدًّا،
ولكنّني أشتــــــــاقك جدًّا




أنيسةُ عزّوز

-2-

كان هذا النّصّ هو أوّل ما يطالعني على شاشة الجوّال... من عادات النّساء أن يضعن صورًا لأزواجهنّ قبل أن يستبدلنها بصور لأبنائهنّ حالما تصبح الواحدة منهنّ أمًّا، كأنّه لا وجود لهنّ خارج إطار الزّواج والأمومة.
ولكنّ رقيّة تكذّب القاعدة وتضع نصًّا بلا تاريخٍ زاد من ذهولي وأحيا جذاذة نيران الشّك ... من تكون رقيّة؟
بفضول أقلّب في الشّاشة المستسلمة طوعًا، يظهر لي ملف وورد عنونته رقيّة بالملف عدد 2، وكتبت تحت العدد عبارة (خاص بأنيسة عزّوز) ...
ماذا يعني ذلك؟
هل تعرف شخوصنا تمامًا مثلما نعرفهم؟




رقيّة الفايد

-2-

الملف عدد2
(خاص بأنيسة عزّوز)

أنيسة عزّوز،

اسمحي لي أن أسقط الألقاب بيننا، فنحن على كلّ حال نتعايش منذ زمن وصار بيننا ماء ودمع وبعض الحكاية...

أنا رقيّة، عمري عقود ثلاثة من الخيبات وسنوات من الألم، كما رأيتني متوسّطة القامة، لست بالبدينة ولا النّحيفة رغم أنّك ترينني إلى النّحافة أقرب، سمراء في باريس وبيضاء في القيروان، وملامحي متوسّطيّة بلا شكّ...

متزوّجة دون أن أجزم بذلك، لم أختر أبدًا أن أكون هنا على هذه الضّفّة الباردة من المتوسّط، ولكنّ التّاريخ طوّحني وأبى إلاّ أن

يلقيني هنا والآن. باع الوطن الكبير أبي وأمّي وباعني طفلة. وكما في كلّ الصّفقات لا يعرف الثّمن إلاّ البائع والشّاري، وأمّا المُباع فمهما كانت قيمته يظلّ مجرّد سلعة يقع تداولها.. ولكنّك بلا شكّ تعرفين حيثيّات البيعة.

أوطان تبالغ في التّنكيل بأبنائها، تضيّق عليهم الخناق، حتّى يستسيغوا هم أنفسهم البيعة، ويشكروا فواعلها ويحمدوهم على النّعمة.

ستقرئين هذا الملفّ كاملًا، أدرك جيّدًا أنّ الفضول دافع جيّد على القراءة خاصّة وحتّى الكتابة..

أنت الآن مسلوبة الإرادة. أختار لك عوض أن تختاري أنت لي! فالرّوائيّ ليس إلاّ نرجسيًّا معوجًّا، ليس له من هاجس إلاّ التّلاعب بشخوصه، وتطويعها خدمة للذّة غامضة في جعلها مجرّد مكعّبات رياضيّة أو دمى يتحكّم بأقدارها كما لو كان الرّبّ. وهو من فرط نرجسيّته لا يتصوّر أبدًا أنّهم قد يتمرّدون عليه، ويختارون طريقًا غير التي قرّرها هو.

لا يستطيع الغبيّ أن يتصوّر لوهلة أنّ الشّخوص قد تفتك فعلًا بالأضواء كلّها، ويستأثر البطل حقًّا بالبطولة الفعليّة كما يراها لا كما يراها الرّوائي... سترين كم هو مزعج أن يعلّبك شخص ما في هويّة ما، فيسمّيك كما يحلو له وقد لا يحلو لك، وأن يتحكّم شخص ما بقدرك، فيحرّكه وفق أهوائه ويقنعك أنّها من صنع يديك، يجعلك في الصّدارة حينًا وفي الحضيض أحيانًا... وكم هو مقلق أن تتلقّيْ التّعليمات للفعل أو اللاّ فعل... ثم يحاسبك فيلقيك في جحيم الشّكّ حينًا وفي موت اليقين أحيانًا.

كذا فعلت بك!

ستدركين أنّك لم تكوني تعرفين شيئًا عنّي وأنّ رقيّة التي تخلقين ليست رقيّة التي تقرئين. يكتب التّاريخ جغرافيّتنا وتتلوّن حكاياتنا بتلوّن الفصول والشّمس ونكتب رواياتنا بشكل أو بآخر، الفرق الوحيد هو أنّ الأبطال الحقّ يختارون الكينونة فعلًا ويرفضون أن يكونوا أبطالًا من ورق وأن يكونوا كالدّمى في مسرح العرائس، فيختارون الرّقص حريّةً والموتَ حياةً ولا يقفون إجلالًا لسيّد ما حتّى وإن كان روائيًّا مرهف الحسّ...

لم يكن مهمًّا أن تقتفي إثري لتصوير حياة امرأة مهاجرة أو كما تسمّونها في لغتكم المحليّة (زميقري) أو من جماعة(السّافيريان).

امرأة تنام متأخّرةً وتصحو باكرًا وفق ما تعتقدين، لتعبث بها لقمة العيش العصيّة في بلاد الكفر... النّساء جميعهنّ يفعلن ذلك، حتّى أنت!

يفعلن ذلك بقطع النّظر عن أوضاعهنّ أو انتماءاتهنّ لأنّ ذلك جزء من "السّاقا" البشريّة في المطلق، يفعلن ذلك هنا في باريس الأنوار وفي آخر بقعة من الأرض المسكونة بالظّلم الجندريّ.
ولكنّك تبحثين عن رواية ترضيك، وترضي أمثالك من الذين لم يفقهوا بعد أنّنا مختلفون جدًّا عن الصّورة التي تريدون. تبحثين عن قدر تصنعينه لك، لتجعلي من اختلافك سبيلًا لائتلافك في مجتمع مازال يعرّفك بلونك وكأنّك بلا اسم. قدر تصنعينه لك قبل أن تصنعيه لي دون أن تفقهي أنّك لا ترين غير ما أمنحه لك، ورغم ذلك فإنّه هناك خيط يربط بينك وبيني، هو ذلك الهاجس الخفيّ الذي يرسم رحلة الإنسان بين الرّضوخ والوعي بالذّات..

أجلس الآن أمام التّلفاز. مستلقية على أريكتي الخشبيّة من الطّراز المغربي الواقعة على يمين باب قاعة الجلوس من شقّتي الضّيّقة، الكائنة ب عـــــ150ـــــدد من شارع قامبيتا بمدينة بوبيني كما تعرفين، لا تفهم أمّي لماذا أصرّ على البقاء في هذه الشّقة الآن وقد مات سهيل. تحسب أنّ السّرّ لا يعدو أن يكون ارتباطي الرّوحي به. السّرّ يا أنيسة هو أنّني هنا أصنع عزلتي، ألِجُها راضية وأغادرها مطمئنّة بعيدًا عن نواح أمّي وحزن أبي، واتّهامات الآخرين. أتابع تسجيلًا قديمًا لسلسلة مبعوث خاص على القناة الثّانية الفرنسيّة التي تعرض ملفًا عن الهجرة السريّة، أظنّك تتابعينها دأبك في ذلك دأب كلّ المثقّفين المغاربة الفرانكفونيين.

لا تنكري ذلك! فالغالبية هناك يفعلون ذلك سرًّا، مخافة أن يقع نعتهم بالتّبعية لفرنسا، قلة يجاهرون بإدمانهم لتلفزة الغرب وصوره ومختلف تجليّاته. هناك رابط بينكم وبين مبعوث خاص، وفرنسا، رابط يشوبه الغموض والعنف واللذّة، تمامًا كما قصص العشق المحرّمة بين طفل و أمّه، تمامًا كما هو الحال بيننا و بينكم فنحن تونسيّون بنظركم فقط عندما نكون بالخارج و حين نعود للوطن نصبح زميقري و في أفضل الحالات عرب فرنسا.

أتسلّى ببعض قلوب عبّاد الشّمس، أنزع سوادها لأتلذذ بالبياض، أحيانًا أمضغها مكتملة، فيختلط ملح وسكّر وتكبر على لساني نشوة أخرى. أفعل ذلك ككلّ الغرباء حين يجنّ اللّيل على وحدتهم، ويفيض على النّوافذ الظّلام. أعبث بأزرار التكنولوجيا، أبحث مثلهم في الفراغات عن أصوات حبيبة هناك، نعرف جيّدًا ندرتَها ولكنّنا نلحّ في البحث عنها...

نحن الغرباء في كلّ مكان، غرباء حتّى في سجننا الضّيّق، لا نملك غير الحبّ والحنين والذّاكرة لتبديل الموت حياة ولمخاتلة الجنون. نحن أيضًا مثلكم تمامًا، مدمنون على كلّ ما يأتي من هناك...

نحِنّ إلى أصولنا عندما نكون هنا، ونحِنّ إلى فرنسا عندما نكون هناك، بينما يتاجر بنا الوطن هنا وهناك في الأزمات، ذلك أنّ أمثالي لم تحبل بهم ذاكرة وطن، وانتماءاتنا ليست غير محض خربشة على أوراق الهويّة التي ورثنا بعضها واكتسبنا بعضها الآخر. نحمل هويّتين وجنسيّتين واغترابين ونتحوّل بذلك إلى سلعتين، كبش فداء تنحره أوطاننا الموروثة مرّة وأوطاننا المكتسبة مرّة بتناوب مرهق ومقرف. وحدها الحقائب وفيّة أبدًا.

في ذاكرتنا لكلّ شيء آت من هناك رائحة أخرى: الثّرى المبلّل بروائح الدّمع والخيانات، الشّجر الواقف بشموخ يعاند الموت والهاجرة، الوجوه الحاملة عدّ السّنين تجاعيد وشيبًا حتّى الحواجب. الخونة أيضًا يصبحون أبطالًا في عيون الغرباء، لذلك سوف أحدّثك عن سهيل... هذا الرّجل الذي أحببته، أحببت انعكاس الثّرى في عينيه، أحببت فيه رائحة أبي، ووقع كلماته الخارجة من سفر مجنون، يغلّفني بغلالة خلتها ستعيدني إليّ فعصفت بي.

سأحدّثك عن سهيل الذي كان يسوقني إلى قدري وكنت أمشي إليه راضية، وكانت كلّ الأسئلة لا تحمل معنى، وأنا مدركة تمامًا أنّ الموت ببدلته الأنيقة جدًّا و فزّاعاته العديدة جدّا و باكياته المأجورات جدّا، واقف هناك عند أعالي الحبّ يفرك يديه، و يرشّ الثّرى، فيلين ليستقبل رفاتي في غفلة منّي ...
أنيسة؛
تعلمين أنّ الحب أفيون وأنّنا جميعًا، نحن المعربدون يحوّلنا الحبّ إلى غلمان وجوارٍ!

هكذا حوّلني حبّه إلى جارية، كنت آوي إليه هربًا منّي، من قدري الذي كلّما عصاني وردّني إليه صاغرة عصيته.

كنت أعدّ الايّام وأهيّئ قلبي بتحنيطه، أرشّ عليه قليلًا من الصّبر الشّرقيّ والعقاقير الغربيّة وأغسّله بدمعي كلّ مساء حتّى إذا الصّباح أتى أعمد إلى زينتي من جديد وأنبعث...

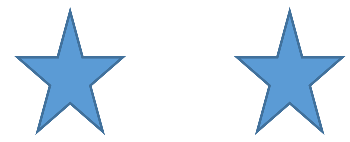
أحبّه! ويقتلني غرور المرأة فيّ حين ينكسر به وأنحني. زئبقيّ كان كالانتماء وليّنة كنت كوطن يعشّش بخيالي، وكعود الفانيليا أقشّر روائحي وأبعثرها على موته ليحيا. وها أنا مثل آلاف النّساء اللّواتي صقلهنّ الوجع وربّاهنّ الفقد وحنى هاماتهنّ رجل أقف ثانية، أغادر قبري وأراود الحياة عن نفسها وأرقص أحيانًا وأبكي أخرى وبين هذا وذاك أرمّم ذاتي.
لست فخورة بما آل إليه الحال ولست نادمة على قتله!
لست نادمة!

أنا فقط لا أحبّ أن أمارس الغباء ثانية، ولا أن أتحوّل إلى مجرّد دمية تحرّكها أنيسة عزّوز كما كان يحرّكها سهيل.

لا أرغب في أن تكتبيني فأنت لست أنا! مهما تتبّعتني ودسست أنفك في أسراري، تظلّين مجرّد راوية لروايتك، ولا أرضى أن

تحمّليني رسالتك، ولا أن تحملي قدري عنّي. فالكتابة قدر وكلّ يحمل قدره.

وإليك الآن الملفّ عـــــــــــــــــــــــــــ3ــــــــــــدد ولتعلمي إنّنا جميعًا مسؤولون عن الحبّ العذاب والوطن الخراب...




ملف عـــــــــــــــــــــــــــ3ـــدد

بوبيني، خريف 2018
شيء(ما) يشبه العادة السريّة

لقد آن لي أن أقف قبالة فوضاي وأن أنكش في زواياي المظلمة و زواياك، وأن أرتّب على مناضد الشّوك والشّوق أشياءنا الصّغيرة وجثثنا الكبيرة، وأن أرصّع على جبين الموت بعض الذّكرى وعلى أديم الحياة صورًا كثيرة بالألوان لعلّي أُبعث...

كان المسير مرهقا والثّنايا بها انعطافات حادّة، لا ظلال لشجر الكاليتوس التي كنت أحتمي بها من الهاجرة حين كنت طفلة تؤوب إلى القيروان صيفًا وإلى باريس حين الخريف. كلّ شيء لبسه الجفاف والموت. لا شيء بقي غير المسافات ال بلا نهاية. لا شيء ينتهي البتّة، حتّى الحكايات المتناسلة بعضها من بعض تئد واحدة وتلد أخرى، تطمس النّهايات معالم لترسم أخرى. ونحن نركض في تيهها اللاّمعقول. بدايات خبرتها وخبرتني، منذ صرنا نحمل في حقائبنا الأرض والنّاس والرّوائح والحكايات والحبّ، لم تعد تباغتني كما كانت تفعل بالذين من قبلي.. مشيتها المسافات مترجّلة تارة وطورًا على ظهر أغنية لحليم أو محمد منير وقلما أم كلثوم التي غالبًا لا تطربني، فأنا على قلّة حيلتي لا أحبّ البكاء.
نعم! أراك تندهشين وتعقدين حاجبيك متسائلة... سأفكّ عنك أسرار الدّهشة المرتسمة حول عينيك، وأؤكّد لك أنّني أستمع إلى أغان عربيّة، ويحدث أيضًا أن أدندن إحداها ويحدث حتّى أن تطربني... و لكنّني أطرب أيضًا، و كثيرًا جدّا لخوليو في (يومًا تبكي يومًا تضحك) أو خالد و (عيشة) أو حتى فلوران باني و(حريّتي في التّفكير)! تحمل الأغنيات عنّي رسائل كثرًا وتحملها أيضًا إليّ.
حارقة تلك الشّموس ومزعجة تلك القناني الفارغة بعد آخر رشفة ماء وأنا العطشى، الحاملة في رأسي حقائب من الوجد

والأمنيات وحقائب من الوجع والخيبات بعد أن خلت أنّه انقشع الحزن بسهيل، فإذا بسحاباته المكتظة المتراكمة تهطل بالعذاب، ولا تغسل أمطارها دمي لتطهّره من دم سهيل. كان يقول لي حين أرفع ناظري إلى الغيمة الماطرة: لا تقتربي أكثر منها فتهوي عليك مثقلة بماء الحنين، فلا لعينيك تليق دموع! وكان يرتعش الهدب منّي، يختفي البؤبؤ، يسوّر الوجع الحاجات البدائيّة التي تستحيل أقرب إلى الأنين ويذكّرني أنني لم أقترب كثيرًا من حافة السّقوط، ولكنّني اقتربت بما يكفي لأشعر بتلك المسافة تتقلّص بيني وبينه، وتتأرجح كفوف الخوف بما يفي للخوف. وأنظر فإذا القاع بعيدًا والسّقف أبعد. لوهلة تتراءى لي بعيدة جدّا، صغيرة جدّا، تلك الأمنية الوحيدة: أن أجد لي وطنًا في عينيْ سهيل فأحط الرّحال أخيرًا، وأتخفّف من وجع التّطواح وإرهاق المسير.

ها أنا وحدي واللّيل والأرق الذي يعصف بقلبي، و علب يتسلّى رأسي بترصيفها داخل ذاكرتي و المسافات الطّويلة التي تفصل دقّ قلبي على الحياة، و سهيل الذي كان المسمار الذي دقّه القدر في خاصرتي ...

سهيلٌ

ها أكتب لك ولن تقرأ يومًا رسائلي. فالموتى لا يقرؤون ولا يسمعون! لا أزال أراك! حين يطرد الصّباح عتمة اللّيل أراك تتسلّل مع خيوط الفجر الأولى، تصبّح عليّ، تدعك مصباحك السّحري، فيتمثّل الكون جنّة و جحيمًا يرتسم على ثغرك و أنت باسم، وتتناثر رؤاي حولك. أحاول الإمساك بك، فلا أمسك بغير طيفك والمسافات والغياب، وتعاودني السّنون خالية منك ومنّي وأسألني هل مازال يذكر حين التقينا؟

حين التقينا، وانسكبت على وريقات سنيني تبدّلت ألواني، صرت الحمرة الصّباحيّة وبنفسج المساء... كم كان يؤرقني عويل اللّيل في رأسي ويمتصّ ألَقي قليلًا قليلًا، وأذوي... كم كنت أتلعثم في الصّباحات قبل أن أتّخذ القرار بوضع قناع الفرح والنّشوة. وحين كنت أنظر في مرآتي تكذب عليَّ الحزينة، فتصوّرني سيّدة البهجة، وتمسح بطرف خفي ما انساب جاريًا على خدّي...

بعض المساءات كانت تبعثرني، أخلع القمصان الملوّنة، أخلع أحمر شفاهي وكحلي، أخلع كلّ خيط كان يتحرّش بجسدي وأستسلم للماء أغتسل منّي ومن خطاياي...

كانت متعدّدة تلك الخطايا!

كانت متناسلة لا تنقطع!

أولها أن أتحسّس فنجاني، وأشرب سواده بتشفّ، أنقّل فؤادي بين ضفّتين لا أوّل لهما ولا آخر، وآخرها أن يهتك اللّيل أسراري وأسواري وأسمعني أهذي وأحاول الفكاك من ذلك السؤال اللّحوح من أكون؟ وصوتك يخندقني عند رأس السّؤال، قائلًا: أنت انتمائي ...

من كان منّا بلا وطن؟ من كان منّا لا قرار لقراره ولا شوارع تعرفه؟

في الصّباحات الحزينة حيث النّبض باهت والعشّاق يتسربلون في أغطية من حنين، كنت أنا في شرفة الشّقّة المعلّقة بحبال السّماء، من أعالي سنواتي الهاربة منّي أقرأ تجاعيد اليأس محفورة على جبين أمّي وكفوف أبي، اليأس من تزويجي وتعليق القوامة والشّرف برقبة رجل. بباريس أيضًا تظلّ الواحدة منّا قاصرًا إلى ما لا نهاية، ولا غاية للأمّهات إلاّ رجل يتفاخرن به. عارية كنت إلاّ من حزني والغياب، أتأمّل زحف البياض على شعري وإيغال الفراغات في دمي وأفول الأمنيات، أسأل الرّبّ عن غد أرفقَ بي قليلًا وعن يوم أحبّه أن يكون مغايرًا...حتى إذا ذات غزو جئتني ألقيت أسلحتي والأقنعة، وسحبت ما علق بروحي من جلدة حرباء، و هتفت بك أن انظر إلى الحزن ينكسر بلقياك و الفرح يهزأ بالعذاب...

انظر...

أتراني فيّ أم فيك أراي؟

انظر!

تخاتلني الصّور كثيرًا، أخلع أسفاري على ضفاف طفولتي التي أحجّ إليها سافرة من ذنب الغربة المتعدّدة. كثيرًا ما لفّني الإحساس بأنّني ريشة في مهبّ الرّيح، فألوذ بدروب بعيدة، أمشي قليلًا في أزقّة سنواتي العشرة الأولى، وأضرب في عرضها وطولها، وأقلب الدّفاتر القديمة...

كيف كان اللّيل غارقًا في السّواد وشجر الكاليتوس المهيمن على باحة بيت جدّتي يراقص نسمات الصّيف الماجنة. نجتمع حولها كالدّراويش ويمتلئ الحوش الفسيح بالجلبة واللّغط. يظلّ الأطفال في حجور الجدّات تختبئ بدفئهن من قصص الغول، نبتهج ببنت السّلطان ورحلات السّندباد وننتشي بنعيمة ونعيم. تغيب عن ذاكرتي صور باريس الشّحيحة نهائيًّا، وتملأ القيروان شراييني. لم تغادرني تلك الصّور ولم يحطّ قلبي رَحله شأنه شأن كلّ من كانوا مثلنا إلاّ لترحال جديد، نحارب النّسيان ونحارب التّذكّر في آن. نسكن باريس، لكنّنا نعرف القيروان وروائحها وقصص أزقّتها

وجدرانها وخرافاتها وعجائزها و تسكننا. شيء يشبه الخرافة، يشبه كثيرًا قصص علاء الدّين وبساط السّندباد فيكون صنو الرّيح مرّة وصنو البرّ مرّات.

قلت لجدّتي ذلك المساء وهي تقصّ علينا حكاياتها: " كيف كان ذلك يا جدّة؟ "

رفت شفاهها بابتسامة مُرّة ...

قالت: " ما أصغرك على هذا السّؤال"!

ظلّ الصّمت يرافقنا بعض وقت. كتومات هنّ جدّاتنا جميعًا إلى أن يذهب المرض بحيائهن، فيثرثرن كثيرًا، تنفصم عرى الأسرار وتتفرّق الحكايات.

ابتعدت عنها وقرفصت قليلًا غارسة ناظري في الأرض، بعصاي الصّغيرة أرسم خطوطًا بالطّول وأخرى بالعرض. خطوطًا لا معنى لها سوى أنّها كانت تسطّر خيبة مسعاي وخرس السّؤال.

" تشاكسين؟ "

قالت ذلك وهي تنظر إليّ مشفقة، تقترب منّي، تملأ حضنها بي، وتهمس وكأنّها تتهيّأ لحدث جلل: " يا صغيرتي! كان الفتى فيهم إذا اشتدّ عوده غالى في الطّلبات، وأمعن في التأفّف من إخوته البنات، وعاند أبويه، وبات اللّيل وشمعته تشي بالقلق والسّهاد، تلك كانت

رسالته إليهم (زوّجوني)... وكان الوشم الذي حفروه طفلة على
جبيني بعد أن وشى البحر بتضاريسي يقول (زوّجوها)..."
يومان فقط بعد السّمر وجدّتي والأسرار المندلقة من دنّ الرّوايات،
لم يمض يومان، حتى استقرّ الحال على الحدث. تمّ كلّ شيء وكأنّه لا
يعنيني! لم أكن أعلم هل وشى البحر بي، أم هي جدّتي والسّؤال؟
لكنّني أدركت يومها أنّ الحياة سرّ خطير وأنّ السّؤال المحرّم غواية
يتلوها السّقوط حتمًا من الجنّة.
بعدها حدث ما حدث، ووجدتني مطرودة من جنّتي إلى جنّتهم،
جنّة مقاسها لم يكن لي.
كما العادة برع الجميع في تأدية مراسم الاحتفال، كنت مثلهم
أضحك ملء شفتيّ، أستلذّ المجلس والوَنَس دون أن يخطر ببالي
أنّهم كانوا ينسجون قصّتي على عجل، ويسدلون على قلبي لباسًا
طقوسيّا سيثقل فيما بعد كاهلي.
كنّا كثيرين في الحوش القديم حيث خُصّصت الباحة المجاورة
للمطبخ للنّساء والهواء العليل للرّجال. كانت الغرفة التي تحتفظ
بها جدّتي لنا مغلقة طوال الوقت حين لا يكون فيها أبي أو أمي أو
هما معًا قبل أن نأوي إليها جميعًا حين يطرق اللّيل أبواب القرية،
يومها كانت مفتوحة لي، حتّى أنّ أمّي عهدت إليّ مفتاحها إلى حين.
يغلي برّاد الشّاي والنّساء يضحكن ضحكات بلا براءة وتثرثر

عيونهنّ ثرثرة فاضحة من حين إلى آخر، بينما العجائز يقرنّ رؤوسهن على فترات متباعدة لحياكة دسائس لم أكن أعيها..

ذلك اليوم لم يكن كالعادة!

عبرنا البحر ليوم كامل بنهاره وليله بعد غياب سنتين، لم أكن أدرك أنّهم في ذلك التاريخ سوف يوقفون طفولتي ويوقظون المارد السّاكن في عمق الأسئلة وأنا بنت العاشرة. بدأت أعي أنّ جسدي بدأ بالتّبرعم، لم أفقه رغم ذلك معنى أن يكون لي علبة أعيش فيها، وأنمو، وأكبر في غفلة منّي؛ وأن تخضّب حمرة دمي الممزوجة بسواد الوشم بعض خرقة كانت جدّتي قد أحضرتها تيمّنًا بالعادة والعرف.

" لا شيء غير حب وثنيّ يهدّ الرّجل في الغربة! "

كذا علّلت أمّي بعد سنوات من الدّمع تلك الرّسوم البربريّة التي خُطّت بعناية على زندي.

عندما سال دم الوشم على زندي، توجّعت قليلًا، قالت أمي وهي تجمع شتات رأسي ودموعي إلى أحضانها:

"هو تعويذة ضدّ العين والضّياع ...".

أسألها باكية:

"ضدّ العين؟ ومن أين تأتي العين يا أمّي؟"

كفكفت دمعها، وهي تقصّ عليّ حادثة الشّاطئ ذات صيف..
حادثة لم تكن تبرع في حبك أحداثها، ولا كانت تجيد تحريك شخوصها، وكأنّها تكابد لحظة من النّسيان المقدّس وعذابات أخر...
العجائز القابعات يتسلّين بجمرته، يغمسن أصابعهن في دفئه، يتراقص الشّبق في أعينهن حين يملأنه بالكحل والسّواد،
ويتفحّصنني هامسات:
"مكتوب على الجميلات!"
ودمي يسيل...
أمّي التي علِقت بحقيبة أبي وهي تشقّ معه المتوسّط ذهابًا وإيابًا وبرعت في الجمع والطّرح و التّعليل، كانت تدسّ دموعها في كمّ فستانها الفضفاض، و تقول:
" حلمت يا صغيرتي أنّك جوّابة مسافات وأنّ العين تابعتك والحظّ العاثر..."
هل كان يحتاج السّفر الموسميّ الذي اختاروه لنا إلى حلم أمّي ليصبح غولًا يرتع كحمل وديع في عشب أفكارها فيصيبها ويصيبنا بالجفاف؟ كدت أصدّق أن السّواد الذي سكبوه في دمي سيكون مطريّتي لولا تلك الابتسامة! بضعة من ثوانٍ تهزّ أقدارنا في غفلة من كلّ شيء.

لمحتك في ذلك المساء من أواخر شهر أوت، حيث تواعدنا عند ناصية الشّارع ونحن نستعدّ لرحلة جديدة هي الرّواح والعودة في آن. كنت تقرأ السّاعة على يسراك وباليمنى كتابك إليّ: (شيء (ما)يشبه العادة السّرّيّة) ... تنسدل عليك البدلة البنّيّة الكاروهات فتنير ملامحك المُسْمَرّة من وهج الشموس، تبيّن ابتسامتك الخجولة، أسرع الخطى نحوك، أتلعثم بالكلام، أقول مساء الخير، تقول مرحبًا.. تبصرني وأبصرك ثم تصافحني يدك مرتعشة وأحتمي من رهبتي بلهفة في عينيك. قلت لي كم كنت تؤثّثين حلمي قبل أن تأتي! قلت: أين كنتَ؟ قلتَ كنتُ أنتشلني من غول يدعى " وطني" وأنتظرك...

لم أكن على ثقة بكونك الوشم الذي تعهّده زندي بالخلود ولازمني كخوذة النّجاة كلّما راودتني الأضواء الباريسيّة، فيعيدني إليك كما قدري. لم أع يوم افترقنا جميعنا بغتة على الشّاطئ المهمل وبكثير من العنف سببَ غضب أمّي وهي تناديني وتتوعّد وتبحلق في ثوبي آمرة بعدم الخروج واللّعب مع الصّبيان. أضاف الوشم أسئلة أخرى إلى كلّ تلك الأسئلة التي يغزلها السّفر الذي يهدّ أبي، والحنين الذي يبكي أمّي في السّرّ دومًا، ولكن تاريخه ظلّ مقترنًا بضحكتك وجزعك من الغد وأنت تودّعني وكأنك تدرك ما لا أدرك... تلك البسمة ذاتها التي كانت تتّسع كلّ عودة ورجوع

وترسلها إليّ خفية من ابن عمّي الموعود بي وأمّي التي لم تفارقني بعدها في كلّ حركاتي وسكناتي. هل كان ذلك يعني أنّني لم أعد طفلة من بين الأطفال أو أنّكم لم تعودوا من الصبيان. دون وعي منّي حملتك فيّ، وسقيت نباتك في صدري خفية وجهرًا. لم يكن يسيرًا أن أشرح لصديقاتي الفرنسيّات أنّني موعودة لابن عمّ لي ولا من اليسير أن أعترف لأمّي أنّ قلبي يخفق لقلب آخر فيما يقطن جسدي الموشّم بلادًا غريبة. لم يكن من اليسير أن أخفي وشم زندي ولا من العسير أن أتّخذ ذلك القرار بالعصيان. ولم يكن لي من خيار سوى تمطيط سنوات الجمر حتى يهتدي المكتوب إلينا، وقد فعل.

يسود بيننا صمت قصير... كان لا بدّ أن يستضيف الضّجيج فينا الصّمت فيجعل العناق صلاة...تمامًا كما نعانق فكرة لا نلمسها ولكنّها تتمثّل إلينا، أرى تلوّن الصّور في عينيك بين كل رمش ورمش، أرمي بأثقالي إليك وتحتوي مني كل الانتظارات.

تلك العرّافة التي قابلتها يوم الوشم وبعده دوريًّا بباحة حوش جدّتي في ذلك الصّيف المزمجر، قالت وهي تنتهي من طقوس التّصفيح والوشم وبعد أن تفحّصت طويلًا في خطوط يدي، قالت إن فارسًا سيكلّل حزني بالألق وإنّه آبق من عهود حبّ ما كان حبًّا وإنّني ملاذه الأخير. وكنت أنظر إلى شفتيها المبلّلتين، تنحدر من

سفلاهما علامة بين السّواد والخضرة، والعرق يتصبّب من جبينها،
أحاول قراءة طالعي في حركاتها المتواترة، خِلتُها تسمّيك وما كانت
تسمّيك، وسمعتها تسمّيني، ولكنها فجأة لملمت كفّي، أغلقت عليه
أصابعي، قالت وهي تهمس في أذني وتنظر بريبة إلى الحاضرين:
سيري إليه فقد قطع إليك نصف الطّريق. وها أنا أقرأ طالعي كما
لم تقله عرّافة، سرت إليك نصفه الآخر أرفل في عذاباتي وترفل في
دمي ويرهقني إليك المسير!

قرأت غير مرّة (شيء (ما) يشبه العادة السّرّيّة)، تفضحك
قصاصاتك المبعثرة بلا رابط أحيانًا وأخرى برابط وتاريخ. تراك
مثلي تحملني سرًّا في قلبك المحنّط بعجز الشّباب و شحّ الأمل؟
الحبّ ضعف -يقولون- يتملّك بقلوب الرّجال فيمارسونه سرًّا
وحين الجهر به يتحوّل الضّعف قوّة تغذّي أهازيج اللّيل وأساطير
كثيرة. بعض من قصاصاتك أفلت من ذاكرتي وخيّر التّحليق بعيدًا
وبعضها لازمني كوجعي بك...




قصاصة رقم 1

حدّثني -تقولين - إن كنتَ صادقًا عن الموت!
عبرت الصّقيع والجوع ولم يقتلني إلّا وطن سكنته فخان وأمل طاردته فنجا منّي واسم حملته ولم يكن لي...
كان كالبحر الطّاعن في الهدوء، وكنت أعبره كالباخرة الطّاعنة في صنع الخدوش على وجهه، عساه يكترث لي...
أبدًا، لم أتمكّن من اقتلاع قلبه واعترافه بي: يتيمان نحن يا وطني... أنت الباحث عن ولد بارّ وأنا الباحث عن أب يمنحني اسمه...
ما زلت أرفض أن يكون الموت أبَ الجميع، أرفض أن أراه يتسحّب بين طيّات ترابك ويستبيح سماواتك وأحلامنا... هو الآن يمطّط شفتيه، يرسل يديه تبحث في أحشائنا عن أطفال لم نلدهم بعد، ويستلذّ بي! يستلذّ بنا...
في وطني يتكاثر الموتى ويتناسلون... لا شيء يوقفه من البحر إلى البحر ومن البرّ إلى البرّ!
و سبتمبر الحزين يدفع البواخر للرّحيل و يحتفظ بروائح عطر فرنسي تعبث بالباقين! ترحل رقيتي وأبقى بين فكّيك أعاند التّرقّب والخوف...
رقيّة أيضًا تبحث عن وطن، عن حضن دافئ تغفو بين أحضانه كلّ المشاعر المتضاربة، تقصّ في فضاءاته حكايات لا تستطيع طيّها ولا كتمانها مزيدًا..

هذا الوطن يخنقني فيه الضّياع، وشحّ الكرامة، وقلّة الاعتراف... وسترحلين وإنّي منتظر بعدُ أن يزف الرّحيل... رحيل هو أشبه بالفرار منّي وما كنت وحدي.

الإمضاء: سهيل/ سبتمبر **2011**!

قصاصة رقم 2

أتمشّى قليلًا في هذا المساء الخريفي من سنة 2011 في باب الجلاّدين ... سيرافقني صوتك وهو يقرئني آياتِ من العشق، سأمدّ يدي وأطوّق خصرك، ستميلين عليّ ميل الوشوشة حين التّنزّه في غابات الوجوه الشّاحبة التي يقتلها العطش في القيروان.
سأراك ترفلين بينهم، تأتين كهمسة صبح، تقبلين جبيني كأمّ رؤوم ثم برقّة ستنساب أنفاسك نحو الشّفاه قبل أن تنعطف إلى ذقني، تتحسّسينه، تخزك شعيراته، فتضحكين!
أتذكرين عندما قلت لي: تعال! ستنتظرك باريس الصّغيرة التي عرفت خطواتي وجال بها وشمي. دعني أراك تحفّ الشّوك عن وجهك، سأستقبلك قطرة ندى تحطّ على قحطِ الغربة الذي يسكنني! أميل عليك، تترك ذراعي خصرَك وتلملم ارتباك عينيك، أتحسّس جيدك، تنظرين إليّ وفي عينيك الجميلتين ذلك الوله يشعل في داخلي براكين من الحنين...
لسعة من النسيم الخفيف الشّحيح جدًّا تلدغ أنفي، أرسل ناظري إلى الضّفّة الأخرى حيث تغزلين الصّمت و الصّخب مراكب لي . بين الضّفتين سأنثر الودع وأسأل الجدّات لمَ لا يلتقي الغرباء إلاّ شتاتًا...
يهزّني صوتُ خالد، صديقي الذي مات هاتفًا بالحريّة والكرامة والخبز... كنّا معًا في شوارع العاصمة وثورة

الياسمين لكنّه خان بالموت تحت الرَّصاص وخنته بالحياة. يقول لي انظر إلى أرواحنا الخراب.. اسمع إلى صفارات البوليس ودويّ الرّصاص، تمعّنْ في هذا الوطن المريض، هذا الوطن الذي يأكلنا واحدًا بعد آخر بالهجرة على قوارب الموت أو على أسرّة عجائز أوروبا أو بساحات القتال في بؤر التّوتّر، أو بِالحقد والجوع هنا في أزقّة مدننا البئيسة ... أريدِ يا رقيَة أن أغيب عن هذا الجوّ المشحونِ بالموت والرّماد، فأراك تأتين لقراءة رغبتي، تجيئين إليّ ثانية وتكذّبين الوعدِ والعرِف بي، تجِيئين تشربين دمعًا لم ينهمر بعد، ترفعين إليّ محياك مبتسمًا وتكنس رموشك مسحة الحزن الغائر في الضّلوع، تقتربينِ منّي أكثر، تدغدغني أنفاسك و أسمعك تهمسين: أحبك...

وحين تلامس الكلمات فؤادي الذي هرم قبل الأوان، تسودّ ثانية شعيرات رأسي التي بيّضها الذّلّ والتّهميش، أقرأ الفاتحة على أرواح من مروا أقرِئك السّلام... أنظر إليك، ألتحم بك وأقول دثّريني فتفعلين!

أعبر المدينة وسطِ الموت الفارد حرائقه على الأزقة الضّيّقة الفارغة من جلبة الأطفال ومن فساتين النّساء الملوّنة، وحده السّواد ينتشر على الوطن و يكفّننا...

أسيرِ مطأطئ الرأسِ مهزومًا في مدينتي، أتحسّس مواضع قدميَ، أمضي في سري وسيري، أحدّثك عن هذا البلد الذي كنت به تحلمين، تحلمين بالعودة وأحلم بالرّحيل. أحدّثك عن بعثرة الحروف و الأسماء و الأرصفة المليئة حفرًا و

عقبات و عن تلك الحبيبة التي لم تعد تونس، عن أرواحنا التي استبيحت و اغترابنا... بين حين و آخر ألتقط لك بعض صور، فتظهر مليئة بالغبش مشحونة بالضّجر و دخان العجل المطّاطي و قرقعة الطوب المتهالك من بنايات قديمة أو جديدة بلا صيانة، و صياح النّساء من وراء الجدران، و احتراقات الرّجال على المقاهي... حتّى جامعة القيروان هناك حيث لم ألتقك - كما يفترض في روايات الحبّ و أنا طالب في كلّية الآداب- لم تعد تحتفي بآمالنا و أحلامنا بل صارت عشًّا للغرابيب السّود... كنّا بالكتب نخاتل الفرح و نسترق أجنحة للعبور إلى ملكوت الحياة. يدمّرون كلّ شيء يا رقية بقذيفة وفتوى، بشعار وخذلان، فنستحيل جميعنا رذاذًا أحمر. لا أحد كان ينتظر أن يكون رذاذ ربيع الياسمين حممًا...

أمشي إلى جانب نفسي صامتًا، حزينًا، فشلنا في الحياة و فشلنا حتّى في الموت.

لا أعرف لماذا أشعر في كلّ مرّة بأنّ هذا التّراب صار غريبًا عنّي، وصرت فيه غريبًا ينتظر أن تنتشله حبيبة عمره ذات حلم وتبعثه...

تصغين -أدرك- إلى همسي، تستمعين إلى وقع أقدامي من بين بقايا الطّوب متناثرة هنا وهناك. يدي التي تطوّق كتفيك تتحرك ببطء، أديرك نحوي، أغمض عيني و أقبلك بالكاد... أخاف التّورّط فيك والتّيه يسكن المسامات. لكنّك بغرور أنثى تقتربين كثيرًا، تنسدل ابتساماتك على تفاصيلي،

تقولين همسًا كلامًا كثيراَ بالفرنسيّة و أقول جهراَ كلامًا كثيراَ بالعربيّة و تندّ عنك ضحكة فأضحك معك، تنقرينني نقراَ كحمامة حبّ و أستلذك فلا أبدي ممانعة و لا أرتمي على تفاصيلك كشرقي وقح... تعلّمت كثيراً من أدبيات سارتر و كافكا و أشعار بول إلوار و نزار و فهمت أنّ النّساء يفضّلن العشق همسًا، تعلّمت أيضًا من دموع أمّي أنّ العلب تضيق كثيراً بالقلوب و تعلّمت من يتمي أن الرّجل وطن للنّساء... فاطمئني أنا لك وطن.. وأنت لي انتماء !

الإمضاء/ سهيل

قصاصةُ عدد 3

منذ سُرِق من بيتنا زيت القنديل وضحكة أمّي و لهو
أطفال الجيران و أنا أشرع للرّيح قلباَ غريباَ لا يحتفل،
أضاجع مرارات الخيبة في قفصي القيرواني الذي تعرفين،
فننجب كلّ ليلة حلماً جديدًا، نسمّه ثم تخنقه الخيبات
و الجيوب الفارغة و المقاهي المكتظّة في الصّباح و حتّى
الهزيع الأخير من اللّيل... كلّ ما تبقى من طقوس احتفالي
هو أنّني ما زلت أناغي للذين ماتوا، الذين أعرفهم و الذين
لا أعرفهم ... يقال أنّهم يصبحون ملائكة والملائكة أطفال
الإله. أنظر إلى الأحياء مثلي ولسنا بأحياء، إلى الذين يزدحم
بهم وجودي فأبتسم لكلّ جثّة منهم ابتسامة خاصّة جدًّا،
وأحرص على ألاّ أزعج الموت المحيط بهم وبي، أناور الموت
حتّى لا يسيل الدّم من جديد... ولكنّ جثث الرّفاق تذكّرني
بأنّ الدّم تحوّل إلى طقس من طقوس الوطن الشّتات و أنّ
احتفالاتهم لم تنته بعد و أنّ الموت حولي يتكاثر لا أدري
كيف و أنّه بالأمس كان رفاقي
و غدًا سأكون رفيق الآخرين ...
لا مناص من الموت أو الموت...
وتسألينني: ما غرّك بي يا سهيل؟ تعلمين الآن أنّك مداي
وأنّني أفطم الموت بك...فدعيني أقشّر في غيابك الصّمت
لعلّي أجد تحت كلّ قشرة حرفًا أستدلّ به عليّ! دونك أنا
والعدم سيّان...

كنت كلّما قرأتك امتلأ قلبي بالوحشة والخوف، تهون غربتي الباريسيّة أمام اغترابك و اختناقك بأحلامك التي لم تفتح مغاليقها شهاداتك العلميّة ويتمك في تراب أجدادك. كانت قصاصاتك استغاثة تحوّلني صلصالًا تتفنّن أنت كساحر في تدويره وتعليبه وفكّه وإعادة تشكيله وهو المطواع حبًّا.
وقد أزف اليوم الرّحيل يا سهيل، هذه أنا أمشي في أزقّة قلبي وحيدة بعد أن كنت أستأنس بنبضك، لم أعد أخاف من رحيلك سيّان عندي إن كنت هنا أو هناك، يحملك الصّباح إليّ، ويدسّك المساء تحت وسادتي حين الرأس تغفو وتزدحم عيناي بالذّكريات، بين الصّباحات والمساءات دورتان... دورة من فقد ودورة من فقد وبينهما دورات من التّحمل والاحتمال. تخوننا الطّرق الملتوية كثيرًا ونخون الطّرق المستقيمة أكثر. قدر الخطى أن تصاب بالتّيه والوهن، وقدر المسافات أن يكون دائمًا مُلازمها المسير. فهل نلوم أجدادنا وقد جابوا البرّ والبحر، وعلّمونا أنّ الرّحيل بلا نهايات، أم نلوم أحفادهم وهم يحاولون الرّجوع؟

نعم يا سيدي! يتعلم الرجال كثيرًا من التّهميش والفقر، وتتعلم النّساء كثيرًا من دموع القلب!

تعلمت أن أخرج من عزلتي التي دامت خمس سنوات بلياليها الطّويلة ونهاراتها المشتعلة، خمس سنوات قضّيت نصفها عبثًا في محاربة طواحين الرّيح والبحث عنك وعنّي، ونصفها الآخر في إعادة نحت ملامح بديلة لي ولك. ولم يكن غير قتلك طريقة لأحييك وأحيا، أمارسك كشيء يشبه العادة السّرّيّة، ينشرني من عدم إلى الحياة ويحشرني في جحيم الغياب!
بدأت قدماي تستعيدان طعم التنزّه الطّويل على ضفاف نهر السّان وبالقرب من تلك الأماكن التي جمعتنا أحيانا في أمسياتنا الأولى المسروقة نزقًا من المشادّات العقيمة المتكرّرة. أكتشف بالكاد أنّ باريس التي عرفتها معك تختلف كثيرًا عن باريس التي تحتضنني الآن.
قبلك كانت هادئة ومنطوية، أمّا معك فقد كانت مجنونة صاخبة، غجرية تحبّ بعنف وتقتل بعنف، أحيانًا مهزومة وأحيانًا ساخنة كامرأة عاشقة. لكنّها اليوم سيّدة عاقلة، تمنح من كلّ شيء بمقدار، تأخذ كثيرًا من ولهي ومن تعبي ومن ابتساماتي وكذا تفعل بكلّ الذين يملؤون شوارعها الكبيرة صخبًا وحياة.
أنيقة تبدو لي وكأنّها تحتفل بي ويشاغبني جمالها كما لو كان هو اللّقاء الأوّل.

تسألني الحدائق وساحة إيفيل والحمام الذي كنّا نطعمه من فتاتنا عنك وعنّي. أمتنع عن الإجابة، فمجرّد التّفكير في إجابة لائقة يمطر قلبي بوابل من النّدم والمرارات المضطربة المتضاربة.

لا أقول شيئًا يرضيها، أكتفي بجذب نفس عميق من هواء ملوّث بالنّسيان والذّكريات والمشاكسات الصّغيرة والانطباعات الملوّنة تلوّن الطّقس وأرواحنا.

باريس اليوم ليست باريس التي كنت أعرف... هي مثلك تمامًا، مدينة ممهورة بالأسئلة، مليئة بالرّغبة والرّهبة والعصيان، مستعدّة أبدًا للحبّ ومستعدّة أبدًا للخيانة.

تتحوّل في اللّيل إلى شبكة صيد ثمين تنصب فخاخها للمنبتّين عن أرض بعيدة أو جذور واهية أو رغباتٍ عربيدة، وفي النّهار تتبدّل غجريّة تحتفل بالحياة ولا تكترث للموت، أو راهبة جائعة للغفران لا تشبع من صلاة أو خشوع!

صرت أختار جيّدًا أوقات التّنزّه فأصل بين اللّيل والنّهار وبين فصل وفصل. أختار دائمًا تلك السّاعات التي تستهتر فيها الشّوارع والأضواء بالهرولة والمواعيد، وتحتفل فيها الحياة باختلاط الألوان، أوقات تتدحرج فيها خرزة الموت و تختلط بخرزة الحياة و يحتفل الأحياء و الموتى على ذات الطّبول.

باريس تكتظّ جدًّا بالوفود...

ما زال البائعون الجوّالون الأفارقة يحملون على أكتافهم أبراج إيفيل النحاسيّة وقوس النّصر وقبّة اللّوفر التي سهر أطفال وانحنى منهم آخرون لتصنيعها بجمهورية الصّين السّعيدة، ما زالت أعينهم تنطق بقهر جليل وإصرار على الرّكض إلى الأمام كحلّ وحيد تحسّبًا لدوريّات الشّرطة المدافعة عن السّيّاح الآسيويين، تمتلئ بهم السّاحات ويسرفون كثيرًا في شراء السّلع المصنوعة في أقبيتهم ويعودون إلى ديارهم فرحين مسرورين.

في كلّ شوارع الدّنيا يتحرّك اللاّ شرعيّون كالأشباح أو اللّصوص، يندسّون في منعطفاتها كما تندسّ أنت في مائي وفي دمي، تصرّ الشّوارع على ابتلاعهم بنهم، دفعة واحدة لمحو آثارهم، حتّى لا تخدش صورهم واجهات العالم الحرّ، وكي لا يقال ما مرّ عام وباريس ليس فيها موت.

لا تزال فتيات أوروبا الشّرقيّة كالدّمى المرمريّة يعرضن مفاتنهنّ بانكسار، والعربيّات ينهمكن في تلميع إسفلت المؤسّسات بالتّناوب مع الأفريقيات، وهكذا تدور عجلات الرقّ الجديد حول انحناءاتهنّ المتعدّدة بلا هوادة.

اليابانيّون والصّينيون أيضًا وحتّى الكوريّون لا يتصرّفون كما في أوطانهم البعيدة، ليسوا ملتزمين بالنّظام العام هنا: يصرخون جدًّا حين يتكلّمون، يدوسون على القواعد ويتخفّفون من قيودهم،

فيضحكون عاليًا ويتركون فضلاتهم ويذهبون. كأنّهم يفعلون ذلك نكاية في كلّ القوانين التي تقيّدهم حتى في غرف نومهم.
وحدهم الأفارقة والعرب يهرولون دائمًا بحثًا عن ملاذ أو لقمة، حاملين غربتهم على وجوههم، ما أكثر الخطى التي يرصّفونها ليزداد جشع المدينة ويزداد فقرهم وذلّهم وتبعيّتهم ...
لا أعرف إن كان طبيعيًّا أن نتغيّر هكذا عندما نغادر أوطاننا. لم أجرّب أن أغادر وطنًا، فهو الذي كان دومًا يغادرني ولا يستوطنني، عشت لاجئة بين الهُنا و الهُناك دون أن يفكّ أحدهما غلالة طيشي، فما عرفت هل يتغيّر الإنسان عندما يدرك أن أرضًا ما ستتحمّل طيشه دون أن تحاسبه، أم أنّه يتغيّر و حسب تصديقًا لقوانين الطّبيعة و التّحوّل، أم أن الحرية بباريس حيث لا ربّ و لا جلّاد مغرية حدّ التّوحّش؟
لم أتجرّأ يا سهيل على تسلّق البرج من بعدك، ولا حتى على التقاط صور للعاشقين الذين يملؤون الجوّ حولي بعبق الحبّ، ولا على الاستلقاء على العشب الطّريّ ناظرة إلى السّماء. ذلك ترف لا تعرفه بعض النّساء مثلي في ساحات باريس وحدائقها إلاّ بصحبة زوج وفي الأيّام الأولى للزواج وحسب، قبل أن يدبّ الرّوتين إلى شرايين القلوب وتصبح الحبيبة مجرّد وعاء ليليّ ينتفخ دوريًّا كلّ تسعة أشهر من السّنة. لعلّه العرف الممتدّ عميقًا في خلايانا

يلاحقنا فيحكمنا بالاختفاء دومًا. أشعر ما زلت بالسّجن في جسدي، فتهفو روحي إلى الانطلاق ويقيّدني الوشم الذي لم أتخلّص منه بعد والخوف من عيون ترصدني من مكان خفيّ. ذلك الجلاّد الذي يزرعونه في الأنثى دونًا عن الذّكر، فتربكنا أجسادنا وهي تتشكّل، ويربكنا الحبّ وهو يزهر، ويربكنا الموت وهو يقتلع الطّيب والخبيث، ونستسيغ جوًّا من الظّلمة يخفي اعتمالاتنا واختلاجاتنا و يوهمنا بالقوّة و الصّلابة و العفّة، و نستأنس بأدوارنا الباكية، تربكنا السّعادة وتقتلنا الحريّة.

كنت تحبّ ساعات الصّفو أن تجلس عند جذعي وأن تترك لعينيك الرّكض في عينيّ وليديك حرّيّة العبث بشعري، تقرأ على قلبي شعرًا ونثرًا، تحدّثني حبًّا وجنونًا، نضحك عاليًا جدًّا حين أقول لك اخجلْ يا رجل! فتقول لي أنّ الخجل خيانة في حضرتي. لم تكن فاعلًا غير ترويضي لتلتهمني كرغيف بفم جائع نهم...

كلّ ما أقوى على فعله اليوم هو أن أبتسم للجميع وأن أخفي مرارات الفقد وأسألك لماذا سقطنا؟

لم تكن صنوي! لم أكن مرآتك!




أكتشف من جديد و أنا أحاول تمزيق شرنقتي أنّ اللّحظات تنساب حبلى بالصّور و الأصوات، و أنّ الابتسامات فراشات تغازل الضّوء، و أنّ للضّحكات أجراسًا تطرد الخفّاش المعشّش في الخلايا، و أنّ النّاس هنا مازالوا يتعرّون صيفًا و ينتشرون على شواطئ الجنوب الساحرة على ضفاف المتوسّط أو تحت السّماوات الغائمة على ضفاف المحيط، حيث يبحث المصطافون عن حمرة برونزيّة و أظنّهم يفعلون ذلك أيضًا على الضّفّة الأخرى فينشغلون بشجر الهندي زمنًا و بالزّيتون أزمنة و بالبحر البعيد الذي يبتلع شبِقًا بعضًا منهم و قد نجوتَ من جوعه الأزلي بي، بينما نجتاز نحن كلّ هذا الشّبق في ممارسة الحياة كأنّنا الأشباح، ممنوع أن نستلقي هنا أو هناك، ممنوع أن نجاهر بالحبّ و الفرح، ممنوع أن نترك للشّمس لذّة التّمسّح على أجسادنا التي لم يقدر برد أوروبا و ثلجها على التّخفيف من سمرتها. هكذا يمضي قلبي المتوسّطيّ المتشظّي باحثًا عن الحرارة بين مقاطع أغنية لجوزفين بيكر (لي حبّان، وطني وباريس) أدندنها في سرّي دون أن يغيب عنّي أنني الآن بعدك، كما كنت قبلك، لقيطة وطن..

منذ أدركت نجاتي بموتك قرّرت الكتابة عنك وإليك،
ومنذ قراري ذلك وأنا كالذّبيحة على الورق. كلّما سال حبري سال دمي، وكلّما كتبتك محوتني وكلّما محوتني محوتك منّي وما عدت إلى نفسي...
منذ انتهيت منك وأنا أهزم خواطري بالنّسيان ويهزمني النّسيان بالدّموع، أمارسك لهوًا واحتياجًا فأستدعيك سرًّا إلى مخدعي وأطردك علنًا ممّا تبقّى من أحلامي. أؤثّث غيابك بالهذيان، فألعنك مرّة وأشاغبك أخرى.
أحاول فهم (ما فوق اللّذّة)، لأدرك كيف يسكرني وجودك حدّ النّشوة ويبكيني غيابك حدّ القهر ويريحني موتك حدّ النّشور والانبعاث. تتحوّل هكذا حالاتي فأشقى بك وأبكي، وأفرح بذكراك وأنتظرك غائبًا لن يعود.
أحاول أن أفهم لمَ أحبّك هكذا بهذا الشّكل المعوجّ؟ فأعود بين الحنين والحنين إلى قصاصاتك التي صارت تتآكل، أبعثك من سبات، برفق أفكّ يدك من الأخرى، أحلّ الرّباط الشّفيف الذي به قيّدت روحي وقيّدتُ به نزقك، أسند جثتك بين السّطور قليلًا... كأنك هرمت أو كأنّ روحك السّكرى بي قد استفاقت، فأصابك التّيه وحملك الطّيش إلى حتفك...

آخذ بيديك، أمدّدك برفق كما كنت أفعل في كل مرّة أحج إليك فيها، أعتني بوضع لمسة حانية على جبينك، أهمس أحبّك وأطرح على كُلِّك رداء من القبلات قبل أن أغلق الكتاب من جديد وأعدك ككلّ مرّة" نم هادئًا فقد أوصيتهم بك خيرًا وربّما، ربّما أيقظك الفقد في آخر فصل من شيء(ما) يشبه العادة السّرّيّة..."

سنوات من العمر عشتها في باريس قبلك، عشت من الرّبيع بعض ألوانه، ومن الصّيف حراراته، وشتاءات هطل فيها المطر كثيرًا و غطىّ الثّلج فيها هامات الشّجر و أسقف العمارات و المنازل... كلّما عاد الثّلج يدغدغ ابتسامات الأطفال فيركضون،" قريبًا يأتي البابا نويل محمّلًا بهداياه"، تستيقظ فيّ تلك الطّفلة التي ظلّت وراء النّافذة تتأمّل البياض بشغف و تتساءل تراهم شقّوه حفاة أولئك الذين جاؤوا من أقاصي الأرض إلى هنا، و عمّ جاؤوا يبحثون. تنطّ كالقطّ المشاكس إلى عنادي فتلعقه توسّلاتك بالحياة وأنتشلك من ضياعك وترميني إلى غياهب جبّ يصل بين الغربة والاغتراب، وأسألك عمّ جئت تبحث يا سهيل... عن نجاتك بي أم عن موتي بك؟

بعدك صرت أتعمّد شقّ قلب المدينة، قد أعيد اكتشاف باريس وأكتشفني. أحاول أن أتعرّف على ملامحي الغريبة وأن أجد لها غرباء يشبهونها في هذه المدينة، هذه الغجريّة التي تغرينا وتمنعنا قيود كثيرة عن مداعبتها والسُّكر بمفاتنها. باريس الغواية، باريس الضّوء والخمر الحرام، ونحن الخائفون من ذنب لا مغفور ونهر السّان المترع بالضّوء وجثث أمنيات العابرين يلقون بها وهم يرمون بقطعة نقديّة من فوق جسر أو في حوض نافورة ما. باريس ككلّ المدن تنثر رضابها على العطاشى ولا يرتوون. أنثى مراوغة سافرة لا تتحجّب، فنتحجّب نحن ونغضّ أبصارنا وأرواحنا، نهرقها في الوشم ونمضي بانتظار العودة مرّة أخرى والرّجوع إلى حيث لا وطن، نشقّها كالغرباء وتشقّنا كالطوفان تأتي على أخضرنا قبل اليابس دون ضجيج.

أتعلّمُ اليوم ممارسة الحرّيّة. فقد أدّيت الدّور بنجاح، أكرمتك وأبي ولم يعد هناك شيء يُخشى عليه. أن أكون كبرى فتيات البيت كان يعني أنّني الحاملة لواء الشّرف، كان عليّ قياس ضحكتي حين ترتسم على الشّفاه وكلماتي حين تفرّ من رأسي والحذر من مغبّة ارتداء تنّورة قصيرة أو بنطلونًا محزوقًا أو ما شابه، وذلك أدنى أن أُرى فيؤذيني شيخ متصابٍ أو منحرف يتجوّل بيننا في الحيّ.

كجنديّ مطيع كنت أحرص على أن أمرّ في غفلة من الجميع ومن

نفسي، أسير بنفس الخطى في نفس الشّارع ودائمًا على نفس الرّصيف. كثيرًا ما تحرّشت الصّغيرة هاجر بخنوعي وصمتي وهي تتنصّل من الشّبه بي، وتؤكّد أنّه شبه جسدي ليس أكثر، فهي لا تستطيع أن تكون مطيعة مثلي ولا تقبل أن تكون محكومة بقانون العشيرة على بعد أميال وأجيال ضوئيّة كما تقول في كلّ مناسبة.

تصغرني هاجر بسنوات ستّ تبدو كأنّها أجيال ستّة. قربها من زهير الذي يكبرني بعام واحد جعلها محطّ اهتمامه الدّائم، وهكذا كانت تعرف كيف تحصل على كلّ الامتيازات من دوني، واستطاعت أن تتجاوز عقدي الكثيرة ومخاوف أمّي واحتمال انتماء واهم إلى قلب رجل.

أتجوّل وفي سرّي أمنية يتيمة أن ألتقي صدفة بشيماء، كما التقيتها آخر مرّة قبل زواجنا، أن أخبرها أنّني عدت أنا الأخرى من هجرتي الشّرعيّة ومن رعبي ومن اغترابي ومن وهم الانتماء! أحلم أن ألتقيها، أو حتّى أن ألتقي بأنطوانيت وأسئلتها المملّة عن الحبّ والعذريّة، فقد كان ذلك الموضوع يشغلها كثيرًا ونحن مراهقات وتشغلني طفولتي التي وأدوها في حفرة الوشم وأغرقوها بحبره الأسود.

كلّ الشّوارع تذكّرني بصوت شيماء، في ذلك اليوم الملئ بالدّموع والأسئلة، و هي تقبل عليّ كانثيال المطر الصّيفيّ على حرائق الغياب، تفتح ذراعيها وتلقاني، فتتشابك أحضاننا، ترتعش أصواتنا من خمرة اللّقاء، تعانقني أنفاسها الدّافئة التي تعطّرت بروائح سيجارة خفيفة بطعم اللّيمون و يأتيني صوتها:

comment vas-tu ma belle

كيف حالك جميلتي!

وأجيبها:

Hamdella ma chérie w enti

حمد الله حبيبتي وأنت

ونثرثر، نثرثر جدّا.

حدّثتني يومها كيف كان يعود الجميع إلى باريس، بينما تظلّ هي تجترّ المرارات، لا يخفّف عليها سوى ذلك السّرّ الصّغير الذي بيني وبينها. كانت تكلّف أصغر إخوتها بإيصال كل جذاذات شعرها حين يسّاقط وهي تمشّطه إليّ، وتوصيني أن أذروها في شوارع باريس، تتعهدني بوعد منها بالعودة يومًا... كنت أبعثرها في الشّوارع اللّصيقة بالحيّ والتي لم أكن أعرف غيرها إلى حين تزوّجت وأدركت أنّ باريس أكبر كثيرًا. كنت أتخيّلها كثيرًا وكأنما تقول لي:

Je te promets !
Paris, j’y reviendrai un jour…J’chuis perdue ici, orpheline et sans visage

أعدك !

باريس! سأعود إليها يومًا، تائهة أنا هنا، يتيمة ولا وجه لي...
ينزّ في قولها تمرّد باريس، وفي صوتها يضجّ صخب جنوب المتوسّط بأصوات المآذن الصباحيّة ودقّ الطّبول فيما تبقى من الوقت، لعلّ قرانا كلّها متشابهة في السّراب و كلّنا متشابهون في التّسليم أو العناد. أتعجّب منها كثيرًا وأتعجّب منّي أيضًا.. كيف اختارت شيماء باكرًا هل هو الحرمان ما يجعلنا ننحاز بصفة نهائيّة. لو لم تُهجّر شيماء إلى الجزائر هل كانت ستحسم خيارها وتتبنى باريس نهائيًّا؟ أم أنّه الحبّ ما يحدّد خياراتنا حين يصبح المكان مجرّد دليل على الحبيب؟

لماذا يصادف هذا اليوم -الواحد من نوفمبر، عيد الموتى هنا- حديثي الطّويل عن شيماء؟ لا أريد أن أصدّق أنّني انتهيت بنظرها وأنّها ماتت. كان فراقنا مجرّد عاصفة وسوف تهدأ. هي كذلك شيماء لا يمكنها أن تمرّ على صداقتنا كما يمرّ غراب على جثّة. سوف تعود وستفعل من جديد مثل ما كانت حين تحدّق بي وتنبري في تعداد

ملاحظاتها، تتفحّصني كما لو كنت ثوبًا داخليًّا من تلك التي كنا نبتهج كثيرًا ونحن نحاولها كلّما اختلينا بخزانة ملابس الأمّهات.
عيناها تشتعلان ببريق غامض واثق كثيرًا ما أربكني. ذلك البريق الذي يحمل من القوّة ومن التّحدّي ما يشي بعوالم متنافرة وصراعات مرتسمة على جفونها كما هو الحال عند كلّ أنثى. تلك الصّراعات التي تخفي حكايات تجاهد النّظرات في تلوينها بالكحل ورفع أشفارها بالماسكارا، لم يبرع الصّناعيّون عبثًا في خلق أدوات التّجميل للنّساء دون الرّجال قبل أن يقعوا تحت ذات المخاوف والضّغوط، فيزاحموننا في الدّمع والأقنعة. ذلك أنّ الحبّ والحرب عندنا، غالبًا ما تجعل الوجوه قبيحة والجفون منفوخة والملامح شاحبة ملوّنة بالموت.
أضطرب كثيرًا عندما ألتقي بنظراتها وأتساءل دائمًا إن كانت تحدّق هكذا بحبيبها فتربكه، أم أنّها كالنّساء جميعًا تنكسر شوكتها عند أوّل كلمة تجرحها أو لمسة حبّ تحييها... لم أكن أجْرُؤ أبدًا على سؤالها، فقد كان كلّ شيء عندها مدعاة للتّهكّم والضّحك.
بمرور الوقت أدركت أنّ شيماء محقّة جدًّا بتلوين الجدّ بالهزل والهزل بالجدّ وأنّ النّاجين من وجع الحياة هم وحدهم أولئك الذين يفتكّون الضّحكة افتكاكًا، و يواجهون أقدارهم بصلابة و تجلّد، إذ

على الأغلب ليس هناك شيء كثير يدعو إلى الضّحك و لا شيء أيضًا يدعو إلى التّجهم

أتوغّل في شوارع المدينة دون أن أبحث عن عنوان محدّد ولا عن وجهة ما. فقط أندسّ بين سماء تسدل حجابها الأسود على أرض تعاند السّواد بالأضواء، ألعق الواجهات بناظري وأقف بين فينة وأخرى للتّمعّن في السّلع المعروضة خلف الفترينات اللاّمعة وأحيانًا أتوقّف فقط لأحدّق بانعكاس وجهي وأتفقّد قيافتي. أقف كثيرًا مثل هذا الموقف وأتساءل في كلّ مرّة أنظر فيها في سواد عيني هل تشبه الواحدة منّا الأخرى؟ هل أشبهني؟ هل أشبه هنا على هذا الزّجاج وجهي الذي تركت انعكاسه على الواجهة السّابقة؟
غير مرّة كنت يا سهيل تنظر إليّ بريبة، يصفو بصرك وهلة فتراني شبيهتك الغريبة والغريبة التي لا تشبهك. تنظر إليّ وتلفّ صوتك في مناديل الصّمت الذي تكشفه عيناك وأضبطك تخمّن" رحلة وغربتان!" وبعدها سرقَتك منّي أضواء باريس، وحاناتها والنّساء. يفتر الوهج في عينيك وأبحث عن الحبّ الذي دام بضعة عام فلا تقابلني غير جثّته مرميّة بين شقوق تجاعيدك التي لم تتكاثر مثلما هو الحال على جبيني وحول عينيّ. أدركت أنا نفسي أنّ الذين

يشقّون المدينة حفاة من المشاعر، هم وحدهم النّاجون من رعب التّلاشي. أدركت أنّ الوجوه التي تعترضني بالكاد تلمحني وألمحها، يسرع البعض ويتمطّط خطو الآخرين، فنتّصل وننفصل دون دموع كما لا نفعل هناك. خليّة من النّمل على ساقين، طقطقة أحذية بكعوب عالية، قهقهات، بكاء أطفال، أزيز سيّارات وأصوات كثيرة تخترقني. بتّ أكره الصّمت ويربكني وألقي بنفسي في حمّام من الضّجيج يقتلع منّي أشباح الوحدة ويعيدني إليّ ويؤنسني. فقد فهمت يا سهيل أنّني وطوال هذه السّنوات التي قضيناها معًا كنت أتعكّز على وحدتي وأسير في نفق مظلم إلى أن قرأت قصاصتك الأخيرة. لا أدري متى حبّرتها ولكنّه من المؤكّد أنّك كنت بحدسك تشعر بموتك فيّ وقتلي فيك:

قصاصةٌ أخيرةٌ...

ستعلمون ذات يوم أنّني أنا، سهيل، لم أكن نبيًا و لم أكن آلهة و أنّ جنونها بي جعل أناي تتضخّم و تتضخّم إلى أن حصل ما لم يكن في الحسبان... ستعلمون عندها أنّ الأوطان و النّساء لا يمكن استرجاعها متى اغتصبت و متى خنّاها و أنّ الأرض حين تضاجع سكّة الغرباء تنجب أطفالًا مشوّهين مثلي. نكذب بالحبّ، نكذب بالخذلان نكذب

بالحياة ونكذب بالموت و حتّى بالكذب نفسه، نبيع
أرواحِنا للشيطان متى كان مستعدًّا للدّفع و هو كالعادة
سخي...
رقية حبيبتي تخون...
تخونني معي، فأغار منّي، أصلّي بعد شراب نصف زجاجة
جعة وبعد مضاجعة أنثى لم أكن أعرفها قبل اللّحظة، أدعو
لها وعليها دون أن أدري لمَ يعتريني ذلك الشّعور بأنّها
ذنبي غير المغفور وأنّني عاجز عن قراءة ذلك الحديث
الذي تكتبه نظراتها وهي تغرس بصرها فيّ قبل أن تتجنّبني
وتمضي. لم أستطع التّوبة عن الجعة وعن الحرّيّة وباريس
ولا عن رقيّة والنّساء و لا عن اللّعنة التي ترافقني. رقيّة لم
تحبّني بل أحبّت تهويماتها فيّ، أحبّت تلك الصّورة التي
نحتتها هي ال بلا وطن للوطن، تلك الصّورة التي نحتتْها
من جنوني عندما أكون بها سكرانًا...
ولكنّني كثير الصّحو منها وكثير السّكر بالأخريات. عندما
يعيدني الفجر إليها منهزمًا، تقترب منّي قليلًا، ثمّ تشيح
عنّي بروحها، تخترق ما تبقّى من عنفواني حين أهشّ أمام
برودتها بالفراق، تقول لي "هل تعلم كم من ليل هزمت
النّوم وبقيت أطرّز ضحكتك على مدى البصيرة وأعدّ النّجوم
الظاهر منها والباطن ... كنت أراك تركض كفراشة بين
الرّياض ولا تهتدي... أفتح عينًا وأغمض أخرى، أنتظر،
أنقّلك من شريان إلى آخر حتّى لا تحرقك سمومي... نحن
النّساء لا نفقه الملل، نحمل أوزارنا بعناد المحارب، نبكي

دون وجع ونضحك بلا سببٍ ونتوجع بلا دمعٍ ونحبّ بلا عقل، نلعن كثيراً ونغنّي كثيراً ونجد دائمًا ثقبا و لو صغيراً نعبر منه إلى النّور... هكذا صنعتك كما تصنع النّساء أسطورة من كلّ الرّجال الذين ولدناهم و الذين لأجلهم نبكي و لهم نبتسم ... لعلّ ذلك تصديقًا لقوله ناقصات عقل... قبل الآن كان كلّ شيء في احتمالي إلاّ أن أتصدّق بابتسامتك على الأخريات" ...

كان ذلك فوق احتمالها واحتمالي فأجلدها بالكلام وبالنّظرات غير البريئة والاتهام وبأنّها بلواي. تنظر إليّ اللّئيمة، تتجاهلني ثم تعود وتقول لي " ضع دماغك في رأسك فأنت مجنون يا حبيبي" -تقول ذلك ضاحكة –" وبائس جدًّا" - تقول -... "و لا أريد أن أتركك حتّى لا أرى الدّموع تغرق عينيك"

كانت تقتل الشّموخ الذي زرعته أمّي فيّ وتقتل القسوة التي ورثتها عن أبي وتقتل الخذلان الذي رضعته من أثداء تونس وتقتل كلّ شيء...

تقتلني! ليس أشدّ من قتلك في عين حبيبتك، كنت أودّ لو تدبّرت أنيسة عزوز حادثة وفاتي مختنقًا بحبّة فياغرا، مرميا على ظهر رقيّة فأظل حملها الثّقيل على مدى العمر. و لكنّه كيد النّساء وبراعتهنّ في استدعاء الصّدف يحرمني البطولة حيّا و ميّتًا!

أخون رقيّة مرّات ومرّات، وفي كلّ مرّة أخونها ثم أتّهمها بالخيانة. أريدها أن تثور! أن تكون كالأخريات ... أن تثور

حين أسبّها، أن تغضب و أن تلمّ أغراضها و ترحل، و أن
ألحق بها بعد يومين أو ثلاثة و أطلبها إلى بيت الطّاعة
صاغرة... لكنّها لا تفعل شيئًا من هذا كلّه. هي فقط تحدّق
بي وتمضي في تقليم أظافر الوحش الذي يسكنني وفي الغرق
أكثر بين سطور روايتها حيث تصنعني كلّ ليلة على مقاسها
وتنام... أمّا أنا فلا أنام... لا أنام...
عندما كانت تخطّ النّهاية و تقتلني كل يوم قليلًا، تنزع
عنها فحولتي و تنزع عنّي رجولتي، حاولت كالطّير الذّبيح
أن أنبعث في عينيها، حاولت ترتيب الكثير من عمليات
الانتقام لها و لي و للأرض المسلوبة و الحلم،لكنّه فات
الأوان و " مات الرّجال" ...

الإمضاء / كان سهيلًا



أقتفي أثر جسدي يدخل شارعًا ويخرج من شارع، يتحرّك صلبًا ويجبر الفضاء على الانقسام نصفين، فأشعر بعظمته وبتماسكه وتماهيه والمكان. أتوغّل في حيّ لي-ماريه. أهرب منك ومنّي. أملأ بالمكان رئتيّ وأكتشف مرّة أخرى واحدًا من أحياء لم أكن أعرفها. شعور غريب بأن باريس قبل الآن لم تكن تعنيني وأنّ سرّتي المدفونة على بعد أميال من هنا لم تعد تنقصني، ولا أفتقدها، كأنّها شيء ضيّعته في خلال رحلة غاباتيّة وغاب بين العيدان والقشّ أو كأنّها بقايا طبق شهيّ ألقيت بها بعد مغص عظيم في أحد المراحيض العموميّة.

أتوقّف بين الحين والحين، أتأمّل اصطفاف الورود والواجهات المتناسقة، تسكنني روح غريبة لم تتذوق من قبل عذوبة التّجوال، تمنحني المدينة نفسها وتترك لي العناية بفكّ أزرار معاطفها الكثيرة، لا تمانع ولكنّها لا تأتي إليّ بل تتركني أتحسّس تضاريسها الواحد تلو الآخر وتترك لي اختيار الخطوة التي تليق بطبيعتها فتتنوّع كثيرًا طقطقات حذائي بتغيُّر الإسفلت وتتغيّر تعابير وجهي بتغيُّر يافطاتها. كلّ شيء يحمل رسالة ولم أكن أعلم أنّ المدن أيضًا لها رسائل.

أعرّج على محلّ يافا لبيع الفلافل. فجأة أفعل ذلك! لم يكن هناك مبرر واحد لتواجدي هنا ولا أدري الآن لماذا أتيت إلى هذا المكان

الذي لا يؤمّه أمثالي، حيّ ترتجّ ذاكرته بخطابات بوردالو، وعشق جورج صاند، وبوهيمية الكتاب والمثقّفين الذين رحلوا تاركين هنا الكثير من أرواحهم.

أحلم بلقاء شيماء في أيّ مكان كان، بي عطش لها وكأنّها السّراج في ليل ديجور. شيماء التي غادرتني يوم أعلمتها بزواجي قالت:

Roquaya tu es folle w'Allah.
Nous ne sommes pas faits pour vivre ensemble. Deux mondes différents. Tu verras le mépris et la souffrance.
Ana nqollik lâche tout ! Fais-moi confiance aychek..

رقية أنت مجنونة والله!

نحن لا نصلح للعيش معًا. عالمان مختلفان.

ستجدين السّخرية والعذاب!

أنا أقول لك، ارجعي على قرارك. ثقي بي!"(يعيشك)

اكتشفت بعد عذابات وجريمة قتل أنّنا من عالمين مختلفين وأنّه لا يكفي أن تتقاسم مع الآخرين بعض تراب أو عِرْق أو لون أو دين أو لغة و ما خالف حتى تنتمي إليه و ينتمي إليك..

الصّدف المرتّبة بمنطق مغاير تقودني إلى هذا الحيّ الذي لا يشبهني أبدًا ولا أشبهه، أندسّ وسط أناس لا تجمعني بهم ميول ولا هويّة وتضعني وجهًا لوجه مع أنطون..

لم يتغيّر كثيرًا، ازداد سمكًا وطولًا ولكنّ تسريحة شعره الأشقر حافظت على ميلانها قليلًا إلى اليسار..

تعثّر في خطوته وهو يتفحّصني ويحاول ربّما أن يتذكّرني. على عكسه فقد تغيّرت ملامحي قليلًا، انطفأت وجنتاي وأحدث الشّيب نوافذ في سواد شعري.

قبل أن أطلب سندويتش الفلافل وأغادر المحلّ بادرني صوت مهذّب

" رقيّة؟

هل تذكرينني؟ "

كم مرّ من الوقت مذ كبرنا جميعًا وافترقت طرقاتنا! منذ غادر الدكتور المالح الحيّ انقطعت أخبارهم عنّا وزاد تسفير شيماء من تفتّت حضورهم في أحاديثنا.

هل كنت سأمرّ دون كلمة لو لم يبادرني هو بالكلام؟ لست أدري. كنت مشرذمة بين رغبتي في الخروج للدّنيا وبين محاولاتي التّجوّل في أحياء لا تعرفني، حيث لن يعترضني أناس مثلي يحملون في رؤوسهم هذا المزيج من العويل والغناء.

صافحني بحرارة وعبّر عن سعادته برؤيتي.

ابتسمت له وقلت:

" وأنا أيضًا..."

لم أفكّر في دعوته للجلوس فأنا نفسي لم أفعل. كنت شبه متأكّدة من عجلته وجريه بلا توقّف بين مواعيده، تمامًا كما كان يفعل أبوه من قبل، حيث تكتظّ قاعة جلوس عيادته بمرضاه العرب. كانوا جميعًا رغم كلّ ما يحصل في فلسطين لا يثقون إلاّ به طبيبًا، يبرعون في تطريز علاقات ودّ مع اليهود و في حشو رؤوسنا بواجب الثأر.

كنّا صغارًا تجمعنا الحياة في حيّ بالفيل وهو حيّ في الحقيقة لا يختلف كثيرًا عن الأحياء الأخرى رغم حميميته. بنايات ليست شاهقة كتلك التي تشقّ بطن السّماء في ارجونتوي أو غيرها من المدن المبيتات وتظلّ تعلو بساكنيها، حتى يسقط الودّ بينهم من شاهق. يتوسّطها الشّارع الكبير، على رصيفيه جالية مسلمة مغاربية وأخرى من التّونسيّين والجزائريّين اليهود. وكان بيننا ما يشبه الهدنة نتقاسم الحيّز العام، يقيم آباؤنا من وراء الجدران سدودًا، ونحرص على كسرها في حديقة الحيّ صغارًا قبل أن نكبر ونصبح كالأولياء.

لم يكن يجمعنا نحن الأطفال غير ساحة المدرسة والحديقة العامّة، حيث نتخفّف من جديد من كل خصوصيّاتنا ونتحرّر من كل ما سنرثه بعد وقت، نتجمّع فينضمّ إلينا أنطون ويفعل فعلنا في حديقة الحيّ أو في ساحة المدرسة قبل أن يقتلعه أبواه من بيننا.
كان أنطون مغرمًا جدًّا بشيماء وكانت هي لا ترى في غيره فتى أحلامها المدلّل. غالبًا ما تضحك بسعادة صافية جدًّا وهي تقول لي:
" حان القطع مع عهد الجدّات حين كانت الواحدة منهنّ تنتظر بلهفة أن يتطلّع إليها رجل. يمكننا الآن أن نختار يا رقية..."
تضيف بدلال أنّ رغباتها ليست معقّدة، هي فقط تريد أن تضحك وأن تحبّ وأن تستمتع بباريس وبالحياة، أن تضحك لا غير، فتبدّد بضحكتها حلكة اللّيل الذي ينتظرها دومًا ولا يخلف وعدًا.
اكتشفنا فيما بعد أنّ الحبّ حماقة طردت أنطون من الضّوء إلى عتمة المبيت وحكمت عليها بسفر نهائيّ إلى وهران.
رغبت يومها ككلّ المراهقات أن تتجوّل في شوارع المدينة ويدها تتشابك بيديه، وأن يجلسا في حديقة عمومية كأطفال كبار يتجاذبان أطراف المستقبل. وكانت الصّاعقة أن فتحا أعينهما على جاسر، أخيها الأكبر وجهًا لوجه.
ينتفضان واقفين وتفرّ هي كحمامة مذعورة ويبقى أنطون ليتلقّى نصيبه من التّربية التي تنقصه. لم يكن من الممكن أبدًا أن

تجتمع إحدانا برجل غريب حتّى لو كان طفلًا مثلنا، خاصة إن كان روميًّا فكيف إن كان يهوديًّا. تلك فضيحة تعلق بالرّوح وتمنع أسرًا بحالها من الأوبة إلى الوطن وخيانة عقابها سجن مؤبّد بالبيت تحت رقابة مشدّدة أو زواج غصبًا لا فكاك منه.

امتلأ الحي يومها باللّغط والصّياح. لأوّل مرّة نكتشف أنّنا لا نعرف ما يعرفه الكبار، وأنّ العالم جميل جدًّا قبل أن يحشر الكبار أحقادهم في شؤوننا الصّغيرة. يومها فهمت لماذا تتستّر الأمّهات على حكايا فتياتهن وخوفهنّ من المجهول وحرصهنّ الدّائم على اجتناب معاصي القلوب العمياء وتحذيرهن من غباوات (الڤوِرَّة)، يقتل الكبار قلوب الصّغار وبذلك يضمنون للحقد الدّفين ازدهارًا وديمومة، قضاياهم الكبيرة لا يحلّها غير قلوب صغيرة قادرة بعدُ على الحبّ والنّقاش.

حين سفّروا شيماء أدركت أنّ الوشم الذي أحمله على زندي ترك ندبته في روحي، منعني علل الحبّ وترك لغول الخوف أمري فقيّدني. دوّى الرّصاص في الحيّ، اشتعلت السّماء بالحرب وتحوّلت شيماء إلى أيقونة تفوق فلسطين، فهمنا أنّ القتل من أجل أنثى أسهل بكثير من القتل من أجل التّراب. تحوّل أنطون إلى مغتصب واشتعلت انتفاضة أخرى على بعد أميال من القدس. على إثرها قرّر الدّكتور إيليا المالح مغادرة الجهة اليسرى من الحيّ إلى جهة

مجهولة أكثر أمنًا، بعد أن حذّر الجميع بأنّ رصاصة وحيدة كفيلة بتخليصه من جرثومة اسمها جاسر. غير أنّ أعوان البوليس قيّدوها قضيّة من بين القضايا العنصرية الأولى ضدّ اليهود، دون أدنى بحث في الحيثيّات ولا اعتبار كلام الدّكتور المالح تهديدًا صريحًا بالقتل، ولا حتّى محاولة تهدئة الخواطر. لا ندري إلى الآن كيف سوّلت للدولة قوانينها أن تجعل النّار حذو الزّيت. عندما كبرنا عرفنا يقينًا أنّها كانت استراتيجيّة من استراتيجيّات السّياسات التي تمهّد للقضايا السّاخنة وتشعل حطب المعارك بكبريت الهويّة والدّين بحثًا عن أسواق جديدة للحرب وهربًا من مساءلة التّاريخ.

اكتشفنا يومها أنّ أنطون يدعى أنطوشا، و أنّه لم يكذب حين كان ينسب نفسه إلى جدّ بعيد عاش بتونس حلق الوادي، كثيرًا ما برهن على ذلك بنطقه بعض كلمات عربيّة سهلة الالتقاط إذا ما أصاخ المرء سمعه إلى سبابنا أثناء اللّعب في أماسينا غير المنتهية صيفًا، و لكنّه يصرّ على كونها قليل من كثير يخوّله لأن يكون ابن عمّ كما كان يقول (**nous sommes tous des cousins).**

عبث الكبار يومها بأحلام الصّغار، وغلبت الحرب على السّلم، وتحوّل أنطون إلى أنطوشا، واستمرّت مجازر فلسطين ورصيفيْ بالفيل، وانتهى كلّ شيء.

هذا اللّقاء الذي تَبْرَعُ الصّدف في ولادته
كغيره من اللّقاءات غير المرتقبة يعيد إلى عالمي أنطونَ، دون أن يخطر أنطوشا ببالي أبدًا. عجبت من الزّمن أنّه وأنّني واقفان الآن دون خوف من جاسر الذي غاب، وقيل بعدها إنّه ربّما التحق بحركة القاعدة في أفغانستان، تحوّل إلى إرهابيّ يقال، ولم يعد..
سألته عن حياته، وعن اهتماماته قبل أن يسألني هو عن حالي. فعلت ذلك عنوة لأترك لي متّسعًا من الوقت ربّما وجدت الشّجاعة لسرد حكايتي.
عدّل من نظّاراته وربطة العنق الأنيقة التي يحمل، يشبهنا كثيرًا ولا يتفوّق علينا بغير أناقته المدروسة كما لو كان خارجًا للتّوّ من حصّة تصوير فوتوغرافي. أجابني مقتصدًا ملامح الوجه والعبارات:
" عدتُ قبل سنوات بعيد وفاة أبي وأمي".
أعدت عبارته للتّثبّت من صحّة سمعي، عيناي مشدوهتان.
قال: " نعم... هو ذلك!
بعد دراستي بكليّة الطّب إرضاء لرغبة أبي غادرت فرنسا. كان يحلم بأن أتخصّص طبيبًا عامًّا ليُورّثني عيادته وكنت أحلم بالهرب من كل شيء و أن أصبح محاميًا و أن أدافع عن قضيّتي ".
" جميل،" قلتُ.
ابتسم قليلًا وهو يستمرّ بالكلام:

" نعم... جميل جدًّا.. فقد صرت حرًّا من كل إرث تركه أبواي، لست أحلم بالأرض الموعودة بل بالإنسان الموعود.. لا رقيب على قلبي ولا على خياراتي... تزوجت طبعًا ومغرم جدًّا".

لم يسألني أنطون عن شيماء، كنت أودّ إخباره بعودتها بعد سنوات من الغربة في الجزائر، وددت لو أنّه سأل عنها، لكنت أخبرته بما حدث معها هناك وبلقائنا الأخير بعد عودتها. لأخبرته بما حدث بعد ذلك و إلى أين أودى بنا إثمها بالحبّ و زواجي.

أكملت شيماء سنتها الدّراسيّة بحراسة مشدّدة. انتظر أبواها العطلة الصّيفيّة لتزويجها هناك ودفن الحكاية.

وسافرت شيماء...

لم تعد ساحة الحيّ تجمعنا، ولم تعد الطّريق المؤدّية إلى المعهد محفوفة بالضّحكات. حتّى الصّغار صاروا يسألوننا إن كان ذلك يعني أنّ عقابها سيكون مصيرنا جميعًا، أو إن كان عليهم اجتناب اللّعب مع مارتان ولورا ونتالي، وكيف يكون للجميع حقّ اللّعب معًا، و الجلوس في الحديقة العموميّة دون خوف من عقاب منتظر.

سألتني أنطوانيت عند الموسم الدّراسي الموالي إن كانت شيماء تواصل دراستها في وهران. تقهقرت إلى الوراء وكأنّها تضع مسافة بيننا حين أعلمتها بزواج شيماء من قريب لها هناك، وبعدم اليقين بعودتها يومًا إلى فرنسا. من تسافر سفرة شيماء لا تعود مطلقًا بعد

أن أفسدتهنّ الغربة ومدارس الكفّار في فرنسا. سألتني أيضًا ببلاهة إن كانت قد أغرمت بزوجها، وإن كانت نسيت أنطون. لم أجد لها جوابًا مناسبًا، سوى أنّ الزواج هناك لا يحتاج إلى الحبّ بقدر ما يحتاج إلى العذريّة. الحبّ يا أنطوانيت – قلت- هو مسألة غربيّة، وهوس أوروبي وأمّا الزّواج فهو مسألة شرقيّة، والعذريّة ليست مسألة شخصيّة على الإطلاق، بل هي أبعد ما يكون عن ذلك، وأنّ الأنثى ليست إلاّ حارسة لتاج العرش المخبوء بين فخذيها. فإذا ما ابتلي القلب وأذنب فلابد من التّعجيل بوأده قبل أن يذنب الجسد.

كدت أقول لها أكثر من ذلك، إضافة إلى قول أمّي الذي تردّده منذ تَبَرْعَمَ جسدي وصار الشيطان يتربّص به وارتوى ثوبي الدّاخلي بحمرة دمي. لكنّ صوتي اختنق لسبب لا أعلمه بالضّبط، ويمكنني القول الآن أنّه اختنق بفعل الوعي بأنّنا مختلفات جدًّا أنطوانيت ونحن، شيماء وأنا. تفرّقت الطّفولة المطمئنّة التي كانت تجمعنا إلى أزقة كهلة مليئة بالمسامير والعتمة والأسئلة التي لا جواب لها، ومن ثمّ اختلف كلّ شيء.

رفعت بصري نحوه وقلت له متهكّمة:

" هكذا إذن! مغرم جدًّا أنت... بينما عانت شيماء".

لم يجبني ولكنّه تفقّد ساعته، واستعدّ للذّهاب، بعد أن أخرج من جيبه بطاقة تركها لي، اعتنى بتسجيل رقم هاتفي على جهازه، وختم برجاء حار أن أقبل دعوته نيابة عن زوجته على العشاء بمناسبة رأس السّنة واحتفال سان سيلفاستر. هززت رأسي مصادقة على الوعد ولكنّه ابتسم قبل أن يغادر تاركًا على شفاهي كلمات بلا صوت، وعلى وجهي دهشة بلا قناع حين قال: ستسعد بك جدًّا ... شيماء...

حملت حيرتي بالخبر السّعيد، تأكّدت مرّة أخرى أنّنا هالكون إن لم ينقذنا الحبّ، ولا منقذ لنا. تسبقنا شيماء دائمًا بمسافة، لم تنجح الأوجاع في كسرها بينما أجرّ خيبتي وسهيل، سهيل لا يغادرني! يأبى قلبي أن يمهلني، وأن يسلّم لغيابه، ويهدأ...

كم من صباح أرنو إلى شفتيه المغلقتين في حداد موجع، وكم من المساءات تناديه وسادتي مغرقة في الدّموع، أضع رأسي، أحيطه براحتي، أبحث عن قليل من الدّفء المهاجر معه، أوشوشه أخبار يومي، كان شاقًّا في العمل ككلّ الأيّام السّابقة واللاّحقة. أحدّثه عن السّيدة ماري لي بلان، سيّدة هزيلة، ولكنّها ثقيلة ثقل الذّنوب. تفتح بابها في نفس التّوقيت، كأنّها تنتظرني، أو كأنّ قدومي إليها

يعيد تكتكة عقارب ساعتها، تسألني دائمًا إن كنت بخير، ولا تنتظر منّي إجابة. أجيبها في كلّ مرّة أنّني أتعافى بمرور النّسيان. هي تسألني دون غرض الجواب وأجيبها دون غرض السّؤال أيضًا، تفعل ذلك بحكم التّعوّد وأفعل لأثبت لقلبي أنّه لن يغلبني. تستقبلني كعادتها باسمة وأصحبها برفق إلى قاعة الجلوس، أرافقها لتنتحي مكانها كالعادة. أفتح علبة الأدوية وأناولها حبة، ترفضها:

" أنا في حداد."

تتسرّب الكلمات من بين شفتيها ملفوفة بصوت يشبه البكاء، أكاد أضحك وأنا أستدير نحوها، ظننت بها هلوسة هذيان وحرارة أو حتّى شيئًا من تذمّر العجائز. أمسك بيديها النّاعمتين، تشبّثت بيدي بعض الشّيء. ثمّ تتحوّل عيناها الضّيّقتان إلى سرادق، ينبعث منهما ضوء ضئيل، حاد. تقول بلهجتها البرجوازيّة الفاضحة:

" ابني الوحيد صار له ابن وصرت جدّة".

أربّت على كفها اللّزجة من فرط نعومتها، أبارك لها الحدث، وابتسم لها صادقة، أتساءل في سرّي عن سرّ غيرة الكبار من الصّغار.

لكنّها تعيد جذبي إليها، وتضيف بصوت خافت:

" ولكنه أسمر! هو الأوّل في عائلتنا".

" أسمر؟ " قلت ذلك مستنكرة.

" نعم، أسمر! "

أردفت: " مسيو لي بلان رجل من أعيان قرية ريفيّة، سوف يتقّلب كثيرًا في قبره حين يعرف أنّ طفله الأشقر أهداه حفيدًا أسمر.."
أسألها كيف التقى ابنها بزوجته السّوداء. فتردّ:
" لا لا هي ليست أفريقية، كان الأمر سيكون أهون إن كانت أفريقية، على الأقلّ ما كانت ستحمله على ترك دينه...
هذه عربيّة، شديدة السّمرة، وفوق هذا مسلمة، قريبًا سيباغتني خبر خروجه من فرنسا إلى الجهاد... هكذا يفعلون! سوف تعبر به الدّنيا إلى جحيمهم مباشرة... حسرتي عليه... "
تسكت وهلة أخرى قبل أن تستمرّ في حديثها إلى نفسها قائلة..." عربيّة، شديدة السّمرة! "
حأحاول إقناعها بجمال الأطفال (الميتيس/ الهجناء) لكنّها تستمرّ تتمتم في سرّها " إدوارد، الأشقر، اللّطيف... طفله أسمر؟" أنتهي من مناولتها الحساء والدّواء، أعيدها إلى سكينتها، وأغيب. سأسير طويلًا على جسر المدينة وقت الغروب، أتأمّل تلك التّموّجات المسائيّة، تنخرني أسئلة مشاغبة ليلًا نهارًا، أنثرها هنا على جسور المدينة وطرقاتها والشّمس الهاربة قبل أن تحاصرني مواجعي حين أعود إلى جدراني الباردة.

تقاسمني الوحدة جلّ حالاتي، ولا فكاك إلاّ أن أشكوه إليه، كم قسا قلبه وهو ينزعني، كم قسا صوته وهو يقول (يا عمري) كيف يسلخ العمر عمره يا سهيل؟ ألا تقل لي؟

أخبره أنّني لست بخير! نعم لست بخير. يقول ذلك الدّوار الذي يحاصرني، يغلبني الدّمع كلما خاطبته، تثقلني ذاكرتي كلما جاءت تنبش في اسمه وضحكته، أفصّله كلّ يوم على مقاس الشّوق، وعلى قياس الحبّ، أمعن في التّنكيل برأسه قبلًا بين أحضاني... تراني أحبّ فيه أناي فأهيم به هيامًا لا حدّ له، أم تراني أحبّ صورته كما قرأتها في روايات الحبّ وفي كتابه (شيء(ما)يشبه العادة السّرّيّة)...كلّ ما أدريه هو أنّني كنت حين أراه قبالتي، أغمض سريعًا عين العقل التي تراه معوجًّا، و أفتح كما الآن عين القلب فيستقيم...

يجيبني في غيابه الفراغ والصّمت، وترأف الوسادة بي، فتشرب أدمعي، وتفتح جناحين يحتملان حماقاتي، وخيباتي، و تنظران إلى وجعي بحنان ذهب معه ذات فجر...

" خائنة! خائنة! " كان يصرخ ويصرخ، صوته يحتدّ ويحتدّ ومن فرط حدّته يذبحني من الوريد إلى الوريد، أتوسّل إليه أن يهدأ، أن يستمع إلى قلبه ، لكنّه يستمع إلى الرّعب المرتسم على ارتعاشة جسدي، فتغريه توسّلاتي بالمزيد من التّهم ويزيّن له ضعفي المزيد

من العنف... لم أكن قد فكّرت من قبل في وضع حدّ لكلّ ذلك، القهر وحده تمثّل ملائكة أو شيطانًا، يضخّ الكلام في جمجمتي ويسيل على لساني حممًا بركانيّة، يتملكّني شيء من الارتباك حين أسمعني أطرده أخيرًا من جنّتي، يضيق بنا الحب ويتّسع لنا الموت.
تصفّق الرّياح في قلبي، كيف هان عليه تركه، وكيف أغلق مسامعه على العويل الذي يهدّ أرجائي، ويسلّمني إلى الغياب جمرة تحت الرّماد.. يسري في دمي صوته، يناديني (حبيبتي! استفيقي ليصبح بك الصّباح أجمل)، أستمع إليه يدغدغ عنقي، يتنفّسني بشغف العطشان إلى عطري، تمتدّ يده تحت أغطيتي، تداعب خصري، يسري فيّ دفء فريد، وهو يختال بأنامله ويكتشف خارطة مساماتي...
أتحرّك قليلًا، أحاول كبح لذّة تسري وخدر يتملّك بي، يقترب أكثر، يقول حبيبتي، تعالي إلى حضني، أستدير نحوه، تنفرج عيوني ببسمات ويرتّل قلبي صلاته: أحبّك...
يأتيني، يقبّلني، يتلمّظني قلبه حبّة كرز أو قطعة شوكولا فريدة المذاق، يلتحم بي، توشوشني مساماته أغنية وألُوذ به، ويلوذ بي، وتخفر الجدران أبصارها خاشعة في محرابنا... " لا تجزعي – كان يقول- أحبّك أنت دون النّساء جميعًا حبيبتي أنت"...

أطرد هواجسي بغيابه والموت، أملأ شراييني به تحسّبًا لغد قد لا يحمله إليّ... كثيرًا ما همست له" عجيب غباء الأنثى يا ذَكَري... يقول دائمًا ما سيحدث بزمن، ويستنكر القلب فلا يكذّبه ولا يصدّقه ويظل متأرجحًا بين شكّ ويقين..."

وذا الفراغ الذي يلفّني الآن، وهو هناك تلفّه أحضانها ربّما، ربّما تلفّه ذكراي، ربما نسي ما كنته وما كنّاه...

هل نسيت يا سهيل؟

هل نسيت أغانيك وفيروز التي تحبّ وقهوتي الصّباحيّة بين شفتيك، علّمتني إدمان الغناء و القهوة و الدّموع... لعلّك نسيت تراتيلي، كيف هو حبّها لك؟ وكيف حبّك لها؟ تراها أقرب إلى أنفاسك منّي، تراك العاشق الذي لم أعرف...

تراك تناديها كما كنت تناديني " حبيبتي، عمري، رقيّتي... "

لا! لا أستطيع تمثّل ذلك، لن تقوى على حبّ امرأة غيري ... فأنا الواحدة الوحيدة، ملاذك الأخير، البدء والمنتهى!

قلت لي إنّك طويت النّساء جميعهنّ إليّ، وإنّ قلبك لا يدقّ لغيري... ما زلت أسمعك ترتّلني، وأسمعني أغنّيك، وتتموسق في حنجرتي شهقة أسطورية...

يناورني صوت إيديث بياف، (لا شيء لا شيء، لست نادمة على شيء) أكذب يا سهيل! أكذب.. نادمة أنا إذ أحببتك وطنًا،

الأوطان أيضًا تتنكّر لبعض بنيها، ونادمة إذ تركتك تستحيل إلى ذكرى تشاكسني لحظة الحياة والموت وما بينهما..

أكتبك لأدفنك بين السّطور و أتعرّى منك، لتظلّ كتابي، يتداوله من بعدنا أحفادنا الذين لن نلد آباءهم، أحفادنا المشرذمين على ألف مدى ومدى منذ الجدّ الأوّل الذي اختار المسافات ملجأ، وليحفظك الزمان وتستحيل بطلي وآلهتي وأستحيل أنثاك العصيّة على الموت ... حتّى لا يخذلني الزّمان بك ولا يخذلك النّسيان بي... أكتبك لأنسى..

هل جرّبت يا سهيل، حمل وجعك كميتة جيفة لا تستطيع دفنه ولا تستطيع نفخ الرّوح؟ أنت الوجع الذي لا يموت ولا يحيا ويشقيني. يعذّبني دمع أمّي وانحناءة أبي، يشقّني العمر الذي أفنيته أدسّ لك مفاتني ونبضي، يعذّبني الوشم الذي لا فكاك منه إلاّ بك! أذعن أخيرًا لفكرة راودتني، فكرة خنقك، والانتهاء منك كما خلقتك ذات مساء مجنون وأنا أقف بين يديهم جميعًا وأعلنك اسمي ولقبي...

أتقوقع بين طيّات أرديتي، وأمدّ يدي لأخمد صوتها، وأسترسل في قراءة اللّيل المنتشر على نهاراتي منذ غيابك، أتحسّس تضاريس روحي المتعبة، ألبِسها قميصًا من تلك التي أهديتني ذات شوق، ثم أغادر جحيمي، أنزلق في بنطلوني الضّيّق، أدسّ ساقيّ النّحيفتين في

خُفّي المنزليّ الشّاحب شحوب لوني، أمسح عن وجهي لمسة أحمر الشّفاه الخفيفة، أطفئ الأنوار، وأقذفني في شوارع مدينة الموتى...
أنا الصّارخ في قلبي يتمي، أمرّ بتلك الشّوارع التي يعوي فيها غيابك، أرفع رأسي قليلًا، تتبعني السّماء باكية لمواسم، أسمعهم يتجادلون ويضحكون... يتمايلون أحيانًا، وأحيانًا يتوقّفون، تخفت أصواتهم، يخشعون قليلًا حين أمرّ بين القبور، أُلقي عليهم السّلام ولا يردّون، لكنّهم همسًا يتساءلون ألن تنسى؟ ... حتّى الموتى يا سهيل مهووسون بهتك الأسرار.
لم يشيّعني أحد حين زفّني قلبي إليك. وحده كان الرّاقص الباكي، وحده كان الشّاهد والشّهيد، وروحي المعلّقة في مشانقك ترقص كلّما علت أنفاسك أو هبطت...
رأيتك قبل أن أراك، وأحببتك قبل أن أحبّك... لحظة غفلة وحيدة وتنقلب الموازين، تعلو أرض وتهوي سماء، ينفلت حبلك منّي، تقطع النّساء وباريس الغواية مشيمتك في لحظة غيبوبة، لا يهدأ لك بال، و لا يهمد جسدك، و لكنّ نبضك كان ميّتًا ككلّ الأوطان التي لعنتها الآلهة و استقرّت بأرواحها دودة قزّ تغزل الحرير مشانق للغرباء مثلي.
الموتى وحدهم يدركون أنّ حملي كاذب، وأنّني خلقتك لأكتبك، وأنّك سرابي الجميل الذي به أهتدي إلى الضّياع المقدّس..

القصاصةُ قبلَ الأخيرة

لا تحبّ النّساء إلّا أبطال رواياتهن، ولا تستقرّ الحياة إلّا لمن أحبّ مخلصًا، تزني أوطاننا بنا، وتنجبنا مِسوخًا، تبسط ذراعِيها للغريب و تضنّ علينا بالحبّ. لم تحبّنا مخلصة ولم نحبها مخلصين! نغادر بحقائب خفيفة من كل ذنب و نعود مثقلينِ بذنوب الغربة و الموت...
ستغلقين الرواية وتخلفين وعدًا قطعته بإيقاظي في الفصل الأخير، لن ينفخ الرّبّ في صورتي، لن أنبعث نبيا، لن أحتويك وطنًا من ورق و لا من سراب، ستغلقين الباب و ستلتحقين بالمطار من جديد... كُتب عليك السّفر كما كُتب على النّساء من قبلك، و كُتب عليّ الموت بجرعة من حبر كما كُتب على كل أبطال الحكايات من قبلي

باريس، سهيل




قصاصةٌ بعد الأخيرةٌ

كلّ شيء يمرّ بسرعة أمامي، الحلم الفاتح لي ذراعيه، رقَية الجديدة، الطّريق الذّاهب بي إلى مدينة سوف تعرفني و أعرفها يسحبني إلى الأمام... وحده وجهك و تجاعيد أبي و وشم جدّتي و صمت أمّي و نبضي يسحبونني إلى الخلف.

رقيّة القايد.




أنيسة عزّوز

-3-

أسئلة أخرى

اليوم الخامس لي في باريس،

لم أنم جيّدًا لأكثر من ليلتين، بقي شبح رقيّة يطاردني حتى بعد أن وضعت مسودّات الرّواية القليلة في ملفّ أغلقته عنوة. يخيّم عليّ شعور مربك، كما لو كنت أدور حول نفسي، يلفّني الفراغ كالواضعة للتّوّ طفلها بعد حمل مرهق وولادة عسيرة، تملّكتني رغبة بالبكاء، اغرورقت عيناي بالدّموع لرحيل رقيّة وصعود سهيل إلى الغيمة الخرافيّة ... ماذا أفعل بهذا المولود الذي يصرخ قبالتي، ما زلت أنزف بعد وضعه، يبتلعني شعور بالخواء، ألفّه في حرير رغباتي المستحيلة، وأنتظر! تمنّيت أن يحدث شيء ما يقلب حالتي، ويملؤني من جديد، كأن تعود لورانس لزيارتي، أو يرنّ الهاتف، فيرتدّ إليّ اليقين محمولًا بصوت أحمد.
أنتظر أن يردّ على رسالتي الأخيرة التي لم يفتحها بعد: " رفيق صباي، أنا بخير، أنجزت جزءًا ليس بالقليل من التحقيق، أستعدّ

اليوم لإجراء لقاءين مهمّين بهما أختم سلسلة اللّقاءات، أحبّك! لا تبطئ بالرّدّ". لكنّه أبطأ. مرّ يوم طويل كالانتظار، أداعب شاشة الهاتف، أنفض عنها غبارًا لا يكاد يرى مخافة أن يحجب عنّي الإشعار بوصول الرّسالة، لكنّها لا تأتي!

تشاغلت بقائمة الأسئلة التي أعددتها لإجراء اللّقاءين المبرمجين لهذا اليوم. سأبدأ بالسّيّدة فاطيمة القرشي وزوجها الحاج صالح.

شربت قهوتي على مهل وتهيأت للمشوار الطّويل، لم أتجمّل، اكتفيت بوضع القليل من الكحل ليخفّف من الهالات السّوداء، وقبعة رماديّة اللّون كمعطفي. وانطلقت.

في مدينة أرجونتوي كنت أستدلّ على العنوان بالخارطة النّاطقة على هاتفي المحمول وفي سرّي أمنية وحيدة، أن يتّصل أحمد، أن يكتب شيئًا، أن يرسل صورة، أو نكتة، أو أيّ شيء!

وصلت أخيرًا إلى موعدي بشارع بول بار، حيث شقّتهما الصّغيرة، أثاث بسيط متمثل في أريكة لثلاثة أشخاص، طاولة مستديرة منبسطة في وسط قاعة الجلوس، يحتميان ببعضهما كطيرين يرتعدان من فرط الحيرة والنّدم. اكتفيت بالسّؤال عن أحوالهما واستدعاء بعض صور الوطن، فتراءى لهما بعيدًا ومغلقًا، نطق الرّجل و هو يمرّر أصابعه على لحيته البيضاء الخفيفة:

" أفنينا أعمارنا هنا يا بنيّتي! جئت من المغرب كعامل صيانة لحدائق السيّد سيمون، يهوديّ من حيّنا، كان أبواه يشغّلان والدي في نفس الخطّة، كلّ أولادي تولّدوا هنا، هذه المخلوقة طارت معي بلا جناح منذ قرابة الأربعين عامًا أو يزيد، نحلّ ونرحل...واليوم أقعدها المرض والفقد! "

" إيه يا بنتي! واش صْرا فينا! شكون قال نجيوا لهنا، ويموت زهير مقتول، ويروح إسلام من بين إيدينا، يعدّي حياتو في الحبس..."

بين شهقة وكلمة تسكت برهة وتضيف:

" آه، حليلي آ بنيتي.. ديمًا باكية أنا!"

تغيب في نحيب مرّ، لم تفلح لمسات زوجها و لا مواساتي في التّخفيف من حدّته. يربّت على كتفيها، يحاول بثّ بعض الهدوء في قلبها المكويّ مرّتين، ويفشل هو، وأسكتُ أنا.

تحوّل صوته إلى سلسلة من الجمل، كما لو كان يتلو درسًا حفظه لفرط ما ردّده:

" الموت غدرًا يا بنيّتي! هكذا اختار الموت زهير، واختارت السّجون إسلام...

كنت في العمل عندما طرق عونان من الجندرمة باب شقّتنا، وأعلنا لها الفاجعة. لم تنج بعدها ولم تكفّ لها دمعة عن الجريان.

زهير كان طفلًا محبًّا للحياة، والنّاس، وماري تيراز بعينيها الخضراوين. الحبّ مشنقة الغرباء يا سيّدتي! كان عنيدًا، لا يطاوع، لم أكن مذعورًا من فكرة فرنسة أولادي، فقد أحسنت هي تربيتهم، وحفظوا القرآن، ولكنّ موته فعل فينا فعل منجل في سنبلة، نجاح الآخرين لا يكفي أبدًا للثأر لي من فقدهما معًا. تلك اللّيلة الحالكة كانت الفصل. كنت منهك القوى بعد يوم عمل طويل يبدأ فجرًا وينتهي على عتبة اللّيل، لمحته عند جذع العمارة المقابلة لعمارتنا، تعبث (القاورية) به، تقبّله، نهرتهما معًا، سقته أمامي إلى البيت، هويت عليه برباط حزامي... عنّفته لأجل مصلحته و لكنّ النّدم اليوم يقتلني... قفز من شرفة الشّقّة بالطّابق الأوّل! أفلت من قبضتي. كان ذلك آخر عهدي به. باتت أمّه تتقلّب على جمر الغضب، ويعضّني النّدم أحيانًا، ويحييني الأمل بأنّه سيعود حتمًا. مرأى (القاوريّة) تمرّ يوميًّا أمام باب عمارتنا – بحثًا عنه – يزيد من عذابات المخلوقة، فتنهال عليها سبًّا وشتمًا، تبصق على الأرض لصفاقتها، لا تأبه هي إلى ذلك، وتسألها عنه، فتستشيط غضبًا. إنّها إبليس الذي أخرج زهيرًا من جنّتنا، الخطيئة التي حلّت ببيتنا فأخلَته، نعق فيه البوم والغربان، وزاد حملها الأمر تعقيدًا. جاء والدها ببندقيّة صيد ذات مساء، أرعد،

وأزبد على مسامع الجميع، توعّد بضرورة إخراج زهير من بطن الحوت، ليكرم مجيء ال " بونيول" الصّغير أو هو قاتله بيديه...
جاء الطّفل، ولم يعد زهير، بل طرق الجندرمة بابنا ليعلنوا عن اكتشاف جثّته غريقًا بنهر السّان ذات فجر... لم يتحمّل إسلام الصّدمة، فلت زمامه منّا، فكان يبيت ليله في العربدة وينفق نهاره في النّوم ...
فرنسا طاحونة يا بنيّتي... لا تدع ولا تذر، ونحن ننفق أيّامنا وأجسادنا في تشييد مجدها وبناياتها، وحفر أنفاقها قبل أن يسلّمونا قرشين، ويشكرونا على تفانينا في الخدمة، يسلموننا إلى المرارة والغربة الجديدة. شيّدناها بأيدينا! سجونهم، كلّ سجونهم حيث يقبع أولادنا شيّدناها بأيدينا، حتّى مشافيهم الحكوميّة حيث نموت كفئران تجارب نحن نتعهّدها بالصّيانة ".
كنت أدوّن بين الحين والآخر بعض الملاحظات والأقوال، وأحيانًا أخرى تأخذني مشاعر من التّعاطف تمتزج بالشّفقة والرّثاء. كم هم تعساء أولئك الذين لا يملكون من قدرهم سوى الموت البطيء هنا أو هناك. الأمر سيّان، الموت هو الموت، هناك على أعتاب الفقر والحاجة أو هنا على أعتاب الرّقّ الجديد الذي لا يرحم، ويسرق من العمر سنينه ومن الرّوح روحها ولا من يأبه.

آن أوان المغادرة، أشفقت على شيبهما من الحسرة، تنفتح ذراعاي، احتضنتها، وبكينا معًا. هناك أكثر من سبب يسيل دموعي، وأكثر من سبب يمنعها عن السّكوت والسّكينة، ولكنّني سرعان ما استعدت نفسي، عدت إلى مهمّتي ولوّحت لها بتلويحة وداع ارتفع على إثرها شهيقها...

غادرت مدينة أرجونتوي ولم تغادرني دموع السّيّدة فاطيمة، ولا صخب الشّبّان وهم يستوقفونني عند مدخل الحيّ. يتقدّم منّي أحدهم ويسألني: " مادام! أنت جديدة هنا؟"

Madame, vous êtes nouvelle ici ?

قلت "لا، لا أقيم هنا!"

دفعهم الفضول إلى الاقتراب منّي أكثر، وتهاطلت الاستفسارات عمّا جاء بي ومن أين وإلى أين، بدا لي أنّ الحيّ بيت واحد. الكلّ مسؤول على سلامته وأمنه من الدّخلاء. اضطرّني شلاّل الأسئلة إلى الكشف عن هويّتي وعن مهنتي وسبب قدومي.

يتناهى إلى مسامعنا صوت فرامل سيّارة، ألتفت يمنة ويسرة في محاولة منّي لفهم ما يجري حولي، لكّهم فرّوا جميعًا، ولم يبق إلاّ عبدال، يعدّل من قبّعته الرّياضية ماركة نايك على رأسه، بحركة عصبيّة يدقّ الأرض بحذائه ويقول بصوت هادئ " لا تجزعي، عمليّة فرز هويّة نعايشها كلّ يوم هنا! البوليس هنا لا علاقة لهم

بأمننا، وإنّما يأتون فقط للبحث عن المشادّات التي تشرّع للعنف المسلّط علينا.

Ils sont là pour casser du noir et arabe ici !

إنّهم هنا لكسر ال (رونوا) الأسود والعربي هنا".

يقترب العونان منّا، يحاول أحدهما الإمساك بالشّابّ، يتقهقر عبدال إلى الوراء:

" توقّف عن محاولة الإمساك بثوبي، من فضلك!"

يسأله الاستظهار بوثائقه وهو يتقدّم منه أكثر فأكثر، يأمره بعدم التّراجع إلى الوراء. يتوقّف عبدال عن التّقهقر، يرفع يديه ليصنع حاجزًا بينه وبين البوليس ولكنّ هذا الأخير يستمرّ في الاقتراب أكثر، يسأله أن يستظهر بأوراقه الثّبوتيّة… يؤكّد عبدال أنّه في حيّه، وتحت شرفة شقّتهم وليس مضطرًّا للاستظهار بأوراقه الثّبوتيّة. لكنّ الرّجل لا يتراجع، ويتابع مطلبه بإصرار، عاد الفارّون قبل قليل إلى المشهد، البعض يشرع في توثيق المشهد عبر الهواتف الجوّالة، أعناق الأمّهات تتدلّى من النّوافذ ويكثر الكلام من هنا وهناك، الأطفال يتصايحون وينادون الكبار، والكبار يصرخون بدورهم ويسدون النّصائح، وأنا بينهم مرتبكة، لا أدرك هل عليّ الاستظهار بأوراقي أنا الأخرى أو الاكتفاء بالمتابعة والصّمت.

من غير مكان يظهر طفل صغير، يرتدي زيًّا رياضيًّت وشبشبًا من الجلد يشي بذكريات عطلة ما في المغرب، يقترب من عون البوليس ويمدّ يده الصّغيرة ببطاقة هويّة، يرتبك عبدال ويصرخ في وجه الصّغير،

يجيبه دون الجرأة على النّظر في عينيه، و يؤكّد أنّ (ماماتي) كلّفته بالمهمّة تفاديًا لما قد يصل إليه الأمر، يتثبّت العون في البطاقة، يعيدها إلى عبدال وبنبرة حادّة يحذّره من مغبّة اختبار آخر، ثمّ يمضي وزميله عائدين إلى السّيّارة.

يرفع عبدال بطاقة بين زرقة واخضرار ويضعها على مسافة قريبة جدًّا منّي:

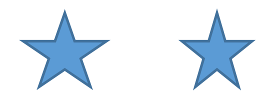
" إنّها بطاقة تعريف وطنيّة... فرنسيّة! مجرد ورقة مادام! لسنا فرنسيّين لأنّنا لا نملك المواصفات الصّحيحة. اللّون عندهم هو الهويّة، ونحن هنا عرب أو سود! تجترّنا البطالة وتسلّمنا لاجترار الوقت والمرارات، حتّى الموت جعلوا له ثمنًا!"

قبل أن أغادر يعود الجمع إلى مواقعهم، يتكلمون في لهجة لا تخطئها الأذن ممتزجة بين فرنسيّة وعربيّة، يسرد كلّ على حدة تجاربه المتعدّدة مع إجراءات فرز الهويّة وبين تجربة وأخرى تنطلق ضحكات و لوعة:

Madame nous sommes les enfants de la zone, notre pays c'est Argenteuil ! La France est un gros mensonge, aussi gros que nos pays d'origine ! R'gardez là ! Pas de taf, pas d’avenir ! Et les keuf n'ont de missions que de nous chasser, immigrés là-bas, racailles ici !

سيّدتي نحن أبناء الحي، وطننا هو أرجونتوي، فرنسا كذبة كبيرة، كبيرة بحجم أوطاننا الأصلية، انظري! بلا عمل، بلا مستقبل، والبوليس لا شغل له غير اصطيادنا!

هناك زميقري وهنا راكاي "



يتفرّقون، فرادى وجماعات، يسيرون في كلّ اتّجاه، منهم من يعود إلى بيته ومنهم من يسير في اتّجاه معاكس، يتوزّعون بين العمارات بخطوات ثقيلة، يجرّون قدرًا صنعهم، بالكاد يحاولون صنع قدر مغاير، يفعلون ذلك كمن يمشي على حافة الهاوية، إمّا أن ينجو أو أن يسقط. في النّهاية تتهشم الخيارات دائمًا وتتقلّص إلى خيارين اثنين بلا ثالث.

أمّا أنا فأسير صوب وسط المدينة، أسير على غير هدى على أمل الوصول إلى محطّة الترامواي الذي سيقلّني إلى حيّ لاديفونس، منحتني المسافة القصيرة التي مشيتها قليلًا من الخلوة بنفسي، رحت أستعرض المشاهد وهي تتوالى على ذاكرتي، أحتاج وقتًا لتنقيتها واحدًا واحدًا وترتيبها، سوف يعدّل منها المدير ليصنع منها حقيقة جديدة.

يزحف الترامواي بين محطّة وأخرى، الوجوه ذاتها في كلّ الأحياء الشّعبيّة، ذات الوجوه المغلقة، ذات النظرات الزّائغة المملوءة ريبة وشكوكًا، العائدات من شقاء العمل يسرعن الخطى حين الرّكوب وحين الهبوط، و ربّات البيوت يضربن بجلابيبهن الشّرقيّة على الأرصفة و المقاعد العموميّة .

ربع ساعة تقريبًا يفصلني عن محطة لاديفونس-ميترو، سوف يرميني الترامواي على رصيفه، وتستقبلني الطّريق الطّويلة قبل أن

أنقر على الديجي كود، أفتح بابًا أوّليًا، ثمّ الثّاني، أنادي المصعد فيأتي طائعًا إليّ، يلتقمني، ينغلق كقبر، يقابلني وجهي على المرآة، ذهب الوقت بكحلي، وذهب التّعب بلمعة في عينيّ تكاد تبتسم من خلالها روحي للعابرين، يصعد وأنزل من سماوات القهر إلى واقعي. سوف أنزلق تحت الماء السّاخن، ستسيل القطرات مسترسلة على شعري المجعّد، سوف أتحسّس تموجاته التي تأسر أحمد وتستعصي عليّ أحيانًا، سوف أنزع التّعب وسوف أراه يغرق في بالوعة النّفايات ثمّ ألفّني من جديد في قميص نومي وأختفي تحت أغطيتي. مختلفة كلّ أيّامي ومساءاتي، وحدها اللّيالي تتشابه عندي. ليال تحمل أرق الكوابيس، أسمع فيها صرير الأقفال، تُغلق وتُفتح، صراخ وأصوات ونحيب وخيالات هاربة من حلكة اللّيل، روائح قيء، دم ينهمر من كل صوب، أحيانًا يباغتني وجع في ظهري، أتحسّس وقع سياط بين لوحتي كتفي وأسفل ظهري، أحاول تغيير وضعي لكن شيئًا ما يقيّدني...

أصوات غليظة تخترق جمجمتي، أسبح في بركة من العرق المالح، أتلمّظه، طعمه المرّ على لساني، يتسرّب إلى دمي، يختلط صوت المؤذّن بصوت كبيرهم يأمر بإعداد راحلته والبقيّة...

سوف أهتزّ، كأنّني أسقط من علٍ، سوف أفتح عيني في عتمة المكان، ستغرف أمي من صبرها حفنة ترشّها على هلعي، وسوف أحاول النّوم من جديد...

تزحف كوابيسي نحوي كلّما توالت على ذاكرتي صور أبي وهو عائد من حظيرة تهيئة المسالك الفلاحية أو السّدود البعيدة. يتهالك على درّاجته، فتقوده بوفاء وأمانة إلى بيتنا بعد نهار عمل شاقّ بدأه فجرًا لينهيه بعد الظّهر.

" باك حمد! تي وينك، النهار راح راهو... "

كلّ فجر ينبعث صوت " عمّي فرج"، يشقّ ظلمة اللّيل، مناديًا أبي، يستحثّه للخروج قبل الأذان، فتعجّل أمّي بتثبيت (القاميلة) في خرج الدرّاجة بينما يدسّ أبي جسمه النّحيل في (قشّابية) من الصّوف الخالص، يحكم لفّ (اللّحفة) على رأسه و رقبته، تسلّمه كعادتها منديلين صغيرين كانت قد خاطتهما على شاكلة قفازات، يدسّ فيهما أبي أصابعه الغليظة التي بالكاد تنغلق على بعضها إذا ما رام فعل ذلك. أسمعها تتمتم في سرّها " عظم الشقا ما يرتاحش"، تدفع به الدرّاجة كطفل صغير تمنحه بعض قوّة لمواجهة الطّريق الملتوية، وهي تردد ككلّ فجر:" شالله زينة قدامكم".

تتفنّن أمّي كلّ مساء في إعداد وجبته التي سيحملها معه إلى الحظيرة، ونتفنن نحن مساء في تفتيشها. عندما يعود أبي وبيده

قفّته تلك نهرع لاستقباله والتّعلّق بساقيه المنهكتين من الدّبيب وظهره المقوّس من شدّة الانحناء، يمتلئ وجهه بضحكة رضى وتنهمر من عينيه السّعادة ونتسارع فيما بعد لتخفيفه من حمله الثّقيل. يسلّمنا القفّة وهو بكامل الرّضى ونفتحها بكامل سعاداتنا في البحث عن قشرة الخبز المتبقيّة وعن ملعقة مكرونة أو كسكسي أو حبّة بطاطا فاضت عن حاجته. لم نكن نفعل ذلك جوعًا، ولكنّه نوع من التّعود الذي يساهم في استمرار ذلك الخاطر الذي يربطنا بأبي ويربطه بنا. حتّى أنّنا وبعد سنوات أدركنا أنّه كان يفعل ذلك عنوة، لم تكن تلك الملاعق فائضة عن حاجته وهو العامل بالجهد الجسدي النّاخر بطنه والمنهكة عضلاته يحتاج حتمًا إلى الكثير من الأكل ليقاوم الإرهاق والتّعب، ولكنّه بتركه ما يتركه كان يقول لنا أنّه لا ينسانا في زحمة يومه، والعمل الذي استعبده و أفناه و أبعده عنّا لم يقتل قلبه و لا تفكيره فينا. يحرص بتلك البقايا على تغذية ذلك الخيط الرّفيع الذي هو حبل سرّتنا المستعصية على القطع، وتحرص أمّي على تذكيرنا في كلّ مرّة أنّه كالطّير يلتقط الحبّ ليضعه بمناقيرنا الصّغيرة وأنّ ذلك ليس أقلّ من دين يعلقانه في رقابنا ذخرًا لأرذل العمر...

أعود لدفن رأسي تحت بطّانية الصّوف، وأسترجع يدي التي خرجت ككلّ فجر بتلويحة لن يراها وأواظب عليها. أستعيد دفء الفراش،

أطمئنّ إلى كلّ حركات أمّي وهي تعيد إغلاق باب حجرتهما المجاورة لحجرتنا، وتلتحق بنا، يختفي الضّوء، يغرق الحوش من جديد في الظّلام في انتظار أشعّة الصّباح الأولى أو صياح سكّان الزّريبة. أحكم شدّ الغطاء على رأسي، أقترب أكثر إلى ركن الحائط، أختبئ به من وحشة المكان واللّيل في غياب أبي ومن صوت عمّي فرج. استمرّ النّوم مجافيًا هاربًا والخوف مصاحبًا طيلة سنوات طفولتي وشبابي، وما زلت أفزع من أعقاب اللّيل ومن صوت الدرّاجة وصليل عجلاتها والباب يغلق وأبي يغيب... لم تفلح كلمات أمّي في تبديد ذلك الرّعب الذي يسكنني، أمّا هو، ذلك الجسم المحنيّ على الدّراجة فقد أفلح بصبره أن يبدّد وحشة الغد وغرس حلمًا بغدٍ مختلف لنا...

أفكّر كثيرًا في طريقة نداء عمّي فرج لأبي... "باك حمد!" ماذا كان ذلك يعني وعهدي بأبي يحمل اسما وحيدًا.

استجمعت شجاعتي وسألت أخي الأكبر عن ذلك ولكنّه نهرني معلّلًا ذلك بكونها تسميات يطلقها النّاس على بعضهم البعض للتّربيج ولا ضرر منها بين ندّين، صرفني بسرعة إلى اهتمامات أخرى يجدها مناسبة لنوعي وسنّي. عمّي فرج كان يبدو أكبر من أبي. ولم يحدث أبدًا أن ناداه أبي بغير "عمّي فرج"، ومنه تعلمناها قبل حتّى التّفطّن إلى غياب رابطة الدّم بينهما. هو كبير

الرجال في(الحومة) ممّا زاد في تغلغل السّؤال بذهني واستغربت قول أخي بالنّديّة المزعومة.

عمّي فرج، طويل القامة، نحيفها كخيزرانة، حركته خفيفة وشاشيّته الحمراء القانية لا تفارق رأسه، شأنه في ذلك شأن سرواله العربي وقميصه الذي يشبه كثيرًا قمصان رجال جزيرة جربة،" عطيّة ساك بوبكر" يؤكّد على ذلك في كلّ مناسبة، ولم أدر مطلقًا سرّ ذلك القميص الذي لا يمتّ لأزيائنا بصلة. صوته الجهوري مكّنه من شهرة واسعة، لا تقام الأعراس ولا المآتم إلاّ بصوته برّاحًا يطوف السّوق، فيعلن عن موت هذا وموعد جنازته ومكانها وعن عرس ذلك وموعد ليلة الحنّة، لكنّه لم يرتق أبدًا لمرتبة مؤذّن للصّلاة، مرتبة تاق إليها بكلّ حباله الصّوتية و حرمته إيّاها قوانين القوامة في عرف قريتنا. غالبًا ما نتحلّق حوله ونحيطه بضحكاتنا ومشاعرنا الدّافئة، عاش زوجًا مخلصا لزوجته التي تشكو من علّة منعتها من الولد، فكان أب الجميع، يوزّع علينا ما تبقّى في جرابه من (حلوة فرنك) بعد أن يمنح زوجته نصيبها. لم يكن له لقب محدّد بيننا، فهو تارة عمّي فرج وطورًا بابا فرج، الوحيدة التي كانت تجرؤ على غير ذلك كانت حياة بنت سي بوبكر، تطالبه بحلوى جديدة هاتفة:

" باك فرج، باك فرج... كعبة واحدة شوي عليّ... زيدني!"

نهرتها قائلة:

" إنّه أكبر حتى من آبائنا، وعلينا واجب التّقدير ومناداته ب عمّي فرج..."

لا يبدو أنّ حياة وعت لقولي، فقد حدجتني بنظرة استنكار وواصلت هتافها:

" باك فرج... زيدني كعبة... "

لكنّه بعينيه الدّافئتين ناولها كثيرًا من الحلوى، تفرّس في ملامحي الغاضبة، وقال:

" ما يسالش يا أنيسة البيّة! تكبري وتعرفي بـــــــارشا حاجات، المهم بنتي اقري على روحك وارفعي راس بابيك، راهو زوّالي كيفنا لكل، قلبه صحيح ويحبك تولّي معلمة..."

لم يحدث أبدًا أن حدّثني أبي بأمانيه ولا بأحزانه وكذا لم تفعل أمّي، كانا محّارتين مغلقتين، يكتفيان بلمّنا حولهما كفراخ الطّير عند المساء، نتجمّع حول العشاء السّاخن أو الموقد في ألفة وهدوء لم يغادرنا أبدًا. لا أجد تفسيرًا لما قاله لي عمّي فرج، ولكنّه بخيانته سرّ أمنية أبي أربكني وأسعدني واختلطت المشاعر في قلبي الصّغير...

بعد ذلك تغيّرت كثيرًا، لم تعد حفلاتنا الوهميّة في الحقول تحت حماية ظلال الزّياتين تستهويني، ولم تعد ألعابنا أدوار الكهول

بتقسيمها فيما بيننا تجد صداها في عالمي الذي كبر فجأة، بغتة اتّسع لمزيد من حرائق الأسئلة وهوس البحث عن أجوبة أخرى، ترى ماذا سأفهم حين أكبر، أيّ رسالة تحملها كلمات عمّي فرج وهو يربّت على كتفي.

كنت أرفض دائمًا أن يكون نصيبي من تلك الألعاب أن أكون القائمة بشؤون البيت والأطفال، وكان عنادي وثورتي محلّ جدل الآخرين، فيغضبون مرّة من عنادي ويسكتون مرّات. وحده أحمد كان يقضي ساعات طويلة يتأمّلني، ملقى على أديم الأرض باسطًا ذراعيه للشّمس، حالمًا باسمرار بشرته حتّى يكون مثلنا.

منذ عكفت على دروسي قاطعت تقريبًا ألعابنا ولقاءاتنا، يناديني ويظلّ واقفًا أمام باحة بيتنا، يناديني بإلحاح، ثم يسلّم لعنادي وينتهي هو الآخر بالعودة إلى بيته ومقاطعة المجموعة. يفعل ذلك دون كلل ولا ملل، يفترش الثّرى ويمتقع وجهه باحمرار وسمرة تتبدّد بعد وقت، يقول لي حزينًا لماذا تمحا سمرتي وتقيم سمرتك؟ يستطيع أن يمكث تحت الشّمس إلى ما شاء القدر له فلن يكون بسوادي. لكنّ تلك الطّفولة الحائرة بين لونين وعالمين لم تكن كلّ منعطفاتها كافية لتفرّق بيننا، ولم يكن ذلك الحبّ الذي نشأ بيننا غير سرّ من أسرار حياة بريئة حاولت عيون الكهول النّمّامة قتلها بقولها: " نحن أخوة و الأخوة لا يتزاوجون..."

على قلق، أنام وأصحو، أتخفّف من كوابيسي حينًا وتثقلني حينًا، أتحسّس بقايا حموضة في فمي و دموع لعلّها جرت في غفلة منّي، إذ كثيرًا ما تهزّني زهرة من كتفي مرّتين أو ثلاثة، تسألني عن سبب بكائي، أنفي الأمر مطلقًا و قد تفتّتت ذاكرة النّوم، تصرّ هي على قولها و أصرّ أنا على النّفي، و أجاهد نفسي في محاولة فاشلة لفكّ شيفرة ما يتغلغل فيّ من أحداث أخالني عشتها في زمن لا أذكره، و لكنّها كالوشم في الذّاكرة.

أتحسّس هاتفي، الساعة الثّالثة فجرًا، أقرأ إشعارًا بوصول رسالة أحمد أخيرًا : " حبيبتي، نحن لا نفي لاشتراطات خارطة الطّريق لكنّنا على ضوئها نستدلّ على أقدار نحن نصنعها، وصلت أخيرًا نتائج التحليل الجيني آ.د.ن، ستجدين تفاصيل كوابيسك وستدركين أنّا معًا سنكتب تفاصيل ذاكرة الميلانين التي سيحملها أحفادنا من بعدنا! أحبّك وأنتظرك!"، متثاقلة الخطوات أغادر السّرير، أسكب كأسًا من الماء طمعًا في إطفاء حرائق العطش، وتغرقني حواسّي في تفاصيل روايتي:




فتحيّة دبّش

ميلانيـ  ـن

روايـــــة

تصدير:

وحدها حكايا الطّفولة و كوابيسنا رواية صادقة!
يضع الكاتب في كلّ بطل من أبطاله شيئًا منه، هاجسًا من هواجسه، أو رغبة من رغباته.
أسرار تحملها جيناتنا وتطفو على الورق!

.... فتحيّة دبّش........

ليون في 22 مارس 2019




العرب
ديوان
للنشر و التوزيع